

فَقَالَ هَيْدَرُ بْنُ
كَرِيمٍ

مُجْتَمَعُ عَصْرِ السَّعَادَةِ

عثمان نوري طوبى باشا





إسطنبول ١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

طبعة منقحة

إسطنبول: ١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

اسم الكتاب باللغة التركية: Asr-1 Saadet Toplumu

ترجمة: محمد عز الدين سيف.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف.

ISBN: 978-9944-83-395-0

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic



العنوان:

- Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / Türkiye
- Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
- Fax : +90 212 671 07 48
- E-mail : info@islamicpublishing.org
- Web site : www.islamicpublishing.org

مُجْتَمَعُ
عَصْرِ السَّعَادَةِ

عَمَّاهُ نوري طوبَّاس

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً، الحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد ﷺ أسوتنا الحسنة بفضله وكرمه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه الكرام الذين ربّاهم ورَفَعهم كالنجوم في أعالي السماء، فجعل عصرهم خير العصور، عصر السعادة للعالمين.

عصر السعادة هو عصر الطمأنينة والسكينة حين كان أفراده ذوي حظ عظيم لمعاصرتهم رسول الله ﷺ.

عصر السعادة هو عصر نزل فيه القرآن الكريم هدياً للناس وفيه تشرّف الكون برسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين.

عصر السعادة هو عصر عاش فيه الصحابة الكرام الذين نشروا نور النبوة في أصقاع الأرض، وبنوا حضارة لا مثيل لها في الفضائل والأخلاق.



وتُطلق كلمة "عصر السعادة" أيضاً على عصر الخلفاء الراشدين، والتابعين، وتابعي التابعين، وذلك مصداقاً لقوله ﷺ: ^١

«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»^٢

ومن هذا المنطلق كان عصر السعادة خير القرون، كان عصرًا يُشار إليه بالبنان في تاريخ الإسلام.

وليس عصر السعادة عصر رفاهية وراحة ذنوية، بل هو عصرٌ مليءٌ بالمشقات والصعوبات؛ عصرٌ وُضعت فيه قواعد الحياة التي تضمن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة بفضل القرآن العظيم ونبينا الكريم ﷺ ونعمة الإسلام؛ عصرٌ رُفع فيه شأن الإنسان المظلوم المقهور بإحقاق الحق ونشر العدل والأخلاق الحميدة، وفيه كانت أعظم الإصلاحات، وحلّت أنوار الروحانيات محلّ ظلمة النفسانيات، وتخلّصت الروح من أسر الجسد، وانتقل الإنسان من الشقاوة إلى السعادة بجعل الآخرة نصب عينيه.

١ يونس، ٦٢.

٢ البخاري، فضل أصحاب النبي، ١ / ٣٦٥٠.



لذلك كله لا يمكن التعرف إلى جمال الإسلام الذين يُخرج الإنسانية من الظلام إلى النور، ولا معرفة ظرافة هذا الدين وورقته إلا بالدخول في قلب عصر السعادة وروحانياته.

قرّاءنا الأعزاء، نضع بين أيديكم هذا الكتيب الذي جمعناه من مقالات كتبناها في الماضي مع إضافات جديدة، وهدفنا منه أن نفهم ذلك العصر المبارك فهمًا واضحًا. وأردنا أن نبين موضوعنا الأساسي بأمثلة توضح الدرجة العالية التي بلغها الذين عاشوا في ذلك العصر في الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق.

وفي الختام أتقدم بجزيل الشكر للدكتور مراد قايا على ما بذله من جهد مبارك في سبيل إعداد هذا الكتاب، وأرجو من الله تعالى أن يكون عمله هذا صدقةً جاريةً في ميزان حسناته.

عثمان نوري طوباش

كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٩

أسكدار- إسطنبول



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾

(التوبة، ١٠٠)



مجتمع

عصر السعادة

مجتمع عصر السعادة

عاش الناس في الجاهلية في ظلام دامس، فقد عمَّ الجهل، وساد الفجور والانحلال، واشتد الفساد والفتنة، وتحولت الصحراء إلى بركة من الدماء بدعوات الثأر والانتقام.

كان الحق مُلكاً للقوي دائماً، فمن كانت له القوة، ظلمَ غيره وسحقَ الضعفاء والمساكين. وعانى المظلومون آنذاك الويلات وكان جُلُّ همهم البقاء بين الأحياء.

معتقدات الجاهلية تحط من قيمة الإنسان

فسدت العقيدة السليمة في الجاهلية، فقد كان هناك أناس يعتقدون بأن قوةً إلهيةً نزلت من الله البعيد عنهم إلى عناصر الطبيعة مثل الحجر والشجر والنار والجبل، وتجلت هذه القوة فيها فأعطتها قدسية. وكان هناك مَنْ يسجد للشمس والنجوم، فيقدِّسها ويعظمها، ظلماً منهم أنها توصلهم إلى الله سبحانه وتعالى.



ومنهم مَنْ كان يعبد المخلوقات غير المرئية مثل الملائكة والجن، ويعتقدون أن عباداتها تشفع لهم عند الله سبحانه وتعالى.

وكان منهم المشركون الذين كانوا يدعون الإيمان بالله ولكنهم يشركون في عبادته مخلوقات أخرى أو الأصنام التي يصنعونها بأيديهم. وكانوا يدعون بأنهم من نسل سيدنا إبراهيم وإسماعيل، ولكنهم تركوا عقيدة "التوحيد" ونأوا عن الحنفية.

وكان هناك مَنْ ينكر الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر، ويعتقد بأن الحياة تقتصر على ما يرونه في هذا العالم.

قدم الحارث بن عبد العزى أبو رسول الله ﷺ من الرضاعة على رسول الله ﷺ بمكة، فقالت له قريش حين أنزلت عليه: ألا تسمع يا حارث ما يقول ابنك هذا!

قال: وما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث بعد الموت، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه، ويكرم فيهما من أطاعه، وقد شئت أمرنا، وفرّق جماعتنا. فأناه فقال: أي بني، ما لك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك



تقول إن الناس يبعثون بعد الموت، ثم يصيرون إلى جنة ونار؟

فقال رسول الله ﷺ:

«نعم، أنا أزعم ذلك، ولو قد كان ذلك اليوم يا أبت لقد أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم».

فأسلم الحارث بعد ذلك، فحسن إسلامه، وكان يقول حين أسلم: لو قد أخذ ابني بيدي فعرفني ما قال لم يرسلني إن شاء الله حتى يدخلني الجنة.^٣

فأغلب الناس في الجاهلية كانوا يعتقدون بمعتقدات باطلة، وأضاعوا ما يميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات مثل العقل والإدراك والشعور والتفكير، فصاروا إلى أسوء الأحوال.

وكان من العسير إيجاد رأي سديد وفكر صحيح، بل كانت الأفكار الخاطئة منتشرة، لذلك كانت المرأة في أسفل درجات المجتمع، فما كان للأُم قيمة وكانت البنت رمزاً للعار.

٣ ابن إسحاق، السيرة، ص ٢٣٤ - ٢٣٥؛ السهيلي، الروض الأنف،

ج٢، ص ١٠٠.



رُوي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال:

يا رسول الله، إننا كنا أهل جاهلية وعبادة
أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي بنت لي
فلما أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها،
فدعوتها يوماً، فاتبعني فمررت حتى أتيت بئراً من
أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها فرديت بها في البئر،
وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه يا أبتاه. فبكى
رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه، فقال له رجل من
جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ، فقال له:
«كف فإنه يسأل عما أهمه»

ثم قال له: «أعد عليّ حديثك»

فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على
لحيته، ثم قال له:

«إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف
عملك»^٤.

لقد كانت الإنسانية آنذاك على حافة الهاوية،
وانهارت الحياة الاجتماعية، وأوشك أفراد المجتمع



على الهلاك، فجاء دين الإسلام فأنقذهم من الخطر
الجسيم، وأقام مجتمعاً فاضلاً.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^٥

العبادات والمعاملات تُرِكَتْ للمصالح الدنيوية

نسي الناس في الجاهلية معظم العبادات، وحرّفوا ما
بقي منها مثل الحج والأضحية من أجل مصالح دنيوية
ومعتقدات باطلة. وكانوا يروّجون لفساد الأخلاق، فكان
الحُجَّاج يطوفون حول الكعبة عراة.

وكانت القوة هي القاعدة الوحيدة في المعاملات،
فالقوي يملك حق الأولوية، والضعيف لا حق له. ولم
يكن في المجتمع أي أثر من الطمأنينة والأمن والنظام.



ابتعدت الأخلاق عن أصلها وإن كانت موجودة

فقدت الأخلاق جوهرها، لا بل باتت وسيلة لتحقيق أهواء النفس، فالفضائل صارت دليلاً على القوة، وتحول السخاء إلى إسراف، وارتكبت أبشع الجرائم بوأد البنات بذريعة العفة والشرف.

لقد كان الفرد في الجاهلية شجاعاً لا يُفارق سلاحه، لكن شجاعته كانت تُقاس بعدد من يقتلهم في سبيل عصبية القبيلة، وكانت شجاعته نابعة من أنانيته وغروره، وكانت الرغبة في إثبات التفوق الفردي ورفعة شأن القبيلة كامنة خلف قناع الشجاعة والفروسية، لذلك كانت الحروب التي لا تنتهي بين القبائل تُنزل بهم أشد المصائب المادية والمعنوية.

أزال الإسلام عادات المجتمع الجاهلي الخاطئة، وأحلَّ محلَّها أفضل الأحكام. وألجم غضب الإنسان الجاهلي العارم الجامح وأبدله بالخصال السامية مثل الحلم والصبر والعدل. ونقى الشجاعة من أهواء النفس والعواطف وجعلها تحت سيطرة العقل ولخدمة غايات نبيلة مثل إحقاق الحق ونشر العدل.



كان الإنسان الجاهلي كريماً مضيافاً، لكن فضائله لم تكن إلا لينال المدح له ولقييلته، وكان همُّه أن يلقي الاحترام وينال الشهرة ويهابه الناس ويحبوه بشجاعته وسخائه ونبله، من أجل ذلك كانت تُذبح بضع شياه دفعة واحدة فتؤكل أكبادها فقط، ويُرمى ما بقي منها.

حضَّ الإسلام على الكرم والضيافة وصقل هاتين الصفتين إذ حذرَّ من الرياء فيهما، وجعل الغاية منهما نيل رضا الله سبحانه وتعالى، فقد وضع في قلوب الناس الإيمان بأن الله مالِك المُلْك، وبأنهم مؤتمنون^٦ على ما في أيديهم، فأدركوا أن صلاحيتهم في أموالهم وأملآكهم محدودة وأنهم مسؤولون، فكان عليهم أن يستعملوا الأمانة التي بين أيديهم لنيل رضا الله تعالى وكما أراد، وأن يجعلوها في خدمة عباد الله.

قال رسول الله ﷺ:

«... اليد العليا خير من اليد السفلى».^٧

٦ انظر: آل عمران، ٢٦؛ النور، ٣٣.

٧ البخاري، وصايا ٩/٢٧٥٠؛ مسلم، زكاة، ٩٧/١٠٣٦.



غير أنه لا بد من الإنفاق من أجل نيل رضا الله وحده، وينبغي الابتعاد عن الغرور وطلب أي منفعة دنيوية. وقد قال الله تعالى مبيناً هذا الأمر:

﴿إِنَّمَا نُنْطَعِمُكُمْ لِيُوجِبَ اللَّهُ لَآ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^٨.

ونهى الإسلام عن الإسراف، فما عاد يُسرف بشيء من الأضحية في مجتمع عصر السعادة، حتى لقد انتقل رأس شاة بين سبعة بيوت ثم عاد إلى البيت الأول نتيجة الكرم والإيثار في ذلك المجتمع.

وجّهت حياة الصحراء الإنسان الجاهليّ نحو فكرة الحرية المطلقة، فما كان يعترف بأي سلطة، لا بل يرفضها ويثور عليها، لذلك لم تكن هناك أي إدارة مركزية. وكان من النادر أن تتجاوز الوحدة الاجتماعية حدود القبيلة، وما كان هناك نظام حقوق قوي متين، فكانت الخلافات تُحلُّ بالتحكيم العاجل أو بالقوة المفرطة والسلاح.

ولقد رفض الإسلام فكرة الحرية المطلقة التي تُمنح لجماعة من الناس، ويبيّن القرآن الكريم بأن

العبد المؤمن أفضل من المشرك الحر،^٩ فأقضى ذلك مضاجع المشركين، فكان الرفض الصارخ من طبقة الأسياد الأحرار الذين أبلغوا رسول عليه الصلاة والسلام أن شرطهم للجلوس معه هو طرد العبيد والضعفاء من حوله، ولكن الله تعالى نهى نبيه عن ذلك نهياً قاطعاً.^{١٠}

صحح الإسلام الأخلاق أولاً، فجعل فكرة الحرية قائمة على أساس أخلاقي، وضمن تحديد الإنسان حريته بضميره. إذ قال الله تعالى:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾،^{١١} وقال أيضاً:

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.^{١٢}

لذلك على المسلم أن يضبط حركاته وميوله، وكانت هذه الفكرة الأساسية سبباً لانقلاب كبير في حياة إنسان الجاهلية ورؤيته للحياة والقيم فيها، فصار تحت أوامر

٩ البقرة، ٢٢١.

١٠ الكهف، ٢٨.

١١ ق، ١٦.

١٢ البقرة، ٧٧؛ الأنعام، ٣.



سلطةً تفوق البشر وحُكم ظاهري، وخاضعاً لضميره. فإذا كان هناك خلاف، لمَّ يلجأ إلى القوة، بل ردهً إلى حُكم الله ورسوله. وأقرَّ المسلمون جميعاً بضرورة إطاعة الله ورسوله وأولي الأمر.^{١٣}

وكان التعاون في عصر الجاهلية لا يخرج عن إطار العصبية القبلية، وكانت معادة الإنسان الجاهلي لغير بني قومه معادةً لا رحمة فيها، وكان يرى قيمة غيره بمقدار ما ينفعه، لذلك لم يكن هناك حدود يقف عندها أثناء غضب أموال غيره، وكان لا يتردد أن يعطي الأجير أجره إن استطاع.

لقد بنى الإسلام التعاون والتكافل على أساس المحبة والرحمة بعد تخليصهما من آثار العصبية القبلية، وجعل الناس المجتمعين على عقيدة التوحيد إخوة وكانهم أعضاء جسد واحد.^{١٤}

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا».

١٣ انظر: النساء، ٥٩.

١٤ انظر: البخاري، الأدب، ٢٧.



فلَمَّا سمَعَ الصحابة هذا القول الذي كان قاعدة
أساسية في تعصبهم في الجاهلية، سألوهُ:
يا رسول الله، نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟
قال عليه الصلاة والسلام:

«تكفه عن الظلم، فذاك نصرتك إياه».^{١٥}

وبذلك صحَّح الإسلام فكرة «التعاون» التي
كان يُساء فهمها في الجاهلية، فأمر بالتعاون في «البر
والتقوى» ونهَى عن التعاون في «الإثم والعدوان».^{١٦}
إنسانُ عصر السعادة معجزةُ النبي ﷺ

يقول شهاب الدين القرافي (وفاته: ٦٨٤هـ) العالم
في الفقه والأصول:

«لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه،
لكفوه في إثبات نبوته».

لقد كانت التربية النبوية تربية متكاملة ظاهراً وباطناً
حتى إنها حوّلت مجتمع الجاهلية الوحشي الذي ما
كان يعرف شيئاً عن الإنسانية إلى مجتمع فاضل لا

١٥ البخاري، المظالم ٤، الإكراه ٦؛ الترمذي، الفتن، ٦٨.

١٦ انظر: المائدة، ٢.



مثيل له، وأنشأ عليه الصلاة والسلام جيلاً من الصحابة لا يسبقهم في الفضل وعلو الشأن أي جيل، فصار الجاهل عالماً، والوحشي مدنيًا، والمجرم متقيًا، أي عمّ الصلاح في المجتمع وصار الناس يعيشون بمحبة الله والخوف منه.

كانت طباع الإنسان في الجاهلية طباع الوحوش، وكأن قلبه قد من حجر، كان ينتزع بنته من حضن أمها ويئدها... وكان يرى العبد متاعاً يُباع ويُشترى، فيرى في نفسه الحق في معاملتهم معاملة غير إنسانية.

فحينما اهتدى هذا الإنسان الفظ الجاهل إلى دين الإسلام، وتعمق في العلم والأخلاق والأدب، بنى حضارة من الفضائل لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية. وعندما بدأ يعيش بأخلاق الإسلام وأحكامه، ارتقى وعلا شأنه علو القمم الشاهقة.

بناء جيل قدوة

لم يستطع عصر الجاهلية أن يربي رجلاً واحداً يمكن أن يُشار إليه بالبنان، أما رسول الله ﷺ فقد تربى على يديه جيل من الصحابة يتحلى بأفضل الخصال ويُقتدى به،



وذلك بفضل تربيته المعنوية وإرشاده، فأضاء هؤلاء الإسلام أرجاء الأرض بنور الإسلام، وما ضعفوا وما استكانوا، وصاروا ينظرون إلى مخلوقات الله بنظر الله. ونشر ذلك النور النازل إلى الصحراء العدل بين الناس جميعاً رحمةً بهم.

كان مؤمنو عصر السعادة الذين ربّاهم رسول الله ﷺ يعرفون الله ورسوله ظاهراً وباطناً، فكانوا خير الناس في العلم والرحمة والظرافة وحسن المعاملة. وكان ذلك العصر عصر معرفة الله تعالى ورسوله معرفة صحيحة بالتفكير والتدبير.

كان الأساس في فكر الصحابة الكرام عقيدة التوحيد، وأفلحوا في تطهير قلوبهم من أهواء النفس وغوائلها وحب الدنيا وزينتها، وصارت أنفسهم وأموالهم وسيلةً لا غاية، وذاقوا لذة الإيمان، وعرفوا الرحمة، وقضوا حاجة المحتاجين، فكانوا بحق ممثلين لشخصية الإسلام.

وقد بين أبو العالية من كبار التابعين شخصية الإسلام

الفريدة بقوله:



«كنا نأتي الرجل لناخذ عنه، فننظر إذا صلى، فإن أحسنها، جلسنا إليه، وقلنا: هو لغيرها أحسن. وإن أساءها، قمنا عنه، وقلنا: هو لغيرها أسوأ»^{١٧}.

ماذا أخذ الصحابة عن رسول الله ﷺ

١. التخلق بأخلاق رسول الله ﷺ حتى صارت أحوالهم كأحواله.

٢. تعلموا كيف يعرفون الله تعالى في قلوبهم وينالون مرضاته.

كان فهم الصحابة الكرام لربهم والكون من حولهم وأنفسهم التي بين جوانحهم فهمًا مميّزًا. وصارت غايتهم المنشودة أن تكون أحوالهم كأحوال رسول الله ﷺ على قدر استطاعتهم، مثلهم في ذلك كمثل المرأة الصغيرة التي تعكس نور الشمس الساطعة. وبذلك اتضح الحق والخير في حياتهم بكل ما فيها من جمال، والباطل والشر بكل ما فيها من قبح. وصار مبتغاهم رضا الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم وفي كل صفحات حياتهم.



كانوا رضوان الله عليهم أسخياء رحماء يتحلون
بالتضحية والإيثار ويعبدون الله حقَّ عبادته...

خضع الصحابة الكرام لامتحان في إيمانهم في
مكة، فأزالوا جميع العقبات في سبيل إيمانهم، وضحوا
بأموالهم وأنفسهم في سبيل إظهار الوجه الحقيقي
للإسلام. فكانت قوة إيمانهم في مكة إعدادًا لبناء
حضارة لا مثيل لها في المدينة المنورة.

وبنوا مجتمعًا إسلاميًا تجد فيه جميع مخلوقات
الله الطمأنينة والسلامة. وسكنت الصحارى التي كانت
تلتهب بنار الفتنة، وحتى الأشجار انتفعت إذ نُهي عن
كسر غصن طري بلا سبب، فنجّت النباتات والحيوانات
من الظلم بأحكام الإسلام...

انتشار الإسلام بسرعة الضوء

اتسعت رقعة دولة الإسلام الصغيرة التي نشأت على
أيدي نحو من أربعمئة أسرة في المدينة المنورة حتى
وصلت إلى العراق والشام خلال عشرة أعوام. وحينما
توفي رسول الله ﷺ، كانت جيوش الإسلام تحارب
الفرس والروم، لكن أحوال الصحابة قبل عشرة أعوام

وطرق معاشهم ومستويات رفاههم لم تتغير، بل ظلوا بعيدين عن ملذات الدنيا. لم يكن في مجتمع الصحابة ترف ولا إسراف ولا تفاخر، بل كانوا يعيشون مدركين في كل لحظاتهم أن «هذه الأنفاس مآلها إلى القبر». لذلك كانوا يتجنبون تخصيص نَعَم الدنيا لأنفسهم والمبالغة في استعمالها، وكانوا يستعملونها لهداية الناس وإسعادهم في جوٍّ إيماني فريد. وكانت بوصلة حياتهم نيل رضا الله تعالى.

وكان من أهم أسباب انتشار الإسلام في المجتمعات المظلومة المقهورة المنبوذة بسرعة كبيرة هو تمثيل الصحابة الكرام لهوية الإسلام تمثيلاً صحيحاً حيثما حلوا، فهؤلاء الصحابة الذين تربوا في المدرسة النبوية كانوا ينظرون إلى عباد الله بنظر الخالق، أي برأفة ورحمة، وكانوا يتحلون بالعدل والصلاح والإيثار والقناعة، وامتألت قلوبهم بحب تبليغ دين الله.

كان حبُّ الله ورسوله أخذًا بشغاف قلوبهم، فصار المجتمع الإسلامي الذي لا يعرف القراءة والكتابة في قمة الحضارة الإنسانية، ذلك أنهم كانوا يتساءلون: «ماذا يريد الله منا؟ كيف يريد رسول الله أن يرانا؟».



رَقَّةُ المشاعر

وصل الصحابة الكرام إلى أقصى ما يمكن للعقل والروح والنفس أن تصله، فهم قد نجوا من شر النفس الأمّارة وتحلوا بالنفس الكاملة. وكانوا يحاسبون أنفسهم كل حين، وقضوا على أهواء نفوسهم، وارتقوا بخصالهم السامية في فطرتهم، وسعوا للوصول إلى مرضاة المولى، فصار حال الإنسان الأعرابي الفظ كحال الملائكة في لطفها وظرافتها. وارتقى ذلك الإنسان من أعماق الظلم والجهل إلى ذرى الرحمة والرفقة بالتأسي بالنبي الكريم. وصار ذلك الإنسان الذي كان ينتزع ابنته من حضن أمها ويئدها كملاك الرحمة في كثرة بكائه بعد الإسلام. وغدت قلوب المؤمنين في ذلك العصر ملاذاً لليائسين، وملجأً لليتامى والأرامل والمساكين.

وصار عمر الفظ قبل الإسلام سيدنا عمراً رضي الله عنه ذا القلب الرقيق بعد الإسلام، حتى إنه قال:

«لو هلك حمل من ولد الضأن ضياعاً بشاطئ الفرات

خشيت أن يسألني الله عنه»^{١٨}.



وكان يحمل أكياس الطحين على ظهره ويدور بها على بيوت الفقراء في الليالي، وبات همه الأكبر مسؤوليته عن أمته وسعادتها وطمأنيتها.

وأما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فلما وضع قدمه على رقبة أبي جهل في أنفاسه الأخيرة في غزوة بدر، قال له ذلك المشرك مُحَقَّرًا من شأنه:

«لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويحي الغنم»^{١٩}.

أي إن ابن مسعود رضي الله عنه كان «راعي غنم» مُحَقَّر بين الناس في الماضي، ولكنه حينما أسلم وتربى في المدرسة النبوية، رقَّ قلبه وعظَّم شأنه.

فكانت مدرسة الكوفة المدرسة العظيمة في الفقه أثرًا من آثار هذا الصحابي رضي الله عنه، وكان من طلبة هذه المدرسة الإمام الأعظم أبو حنيفة الذي يُعدُّ أول مَنْ وعظَّ في علم الفقه، وعلماء عظماء آخرون لو عاش حمورابي وسولون المشهوران في القانون في عصرهم، لما كانوا إلا تلميذين لديهم. ولو نظرنا اليوم إلى أي علم من العلوم الإسلامية، لرأينا اسم ذلك الصحابي أي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في المقدمة.



لقد كان كلُّ صحابي من الصحابة رضوان الله عليهم
أجمعين ممثِّلين لمعجزة القرآن الكريم، وكانوا قدوةً
للناس في الفراسة والبصيرة.

الانسجام بين عمل القلب وعمل العقل

كان هناك انسجام كبير بين عمل القلب والعقل لدى
الصحابة الكرام، وكان ديدنهم التفكير والتدبر، وكانوا
يعيشون مدركين أن هذه الدنيا دار ابتلاء، فأبصرت
قلوبهم عظمة الخالق وقدرته. وساروا إلى أقاصي
الأرض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما وهنوا
وما ضعفوا وما استكانوا. ومن أمثلة التي تبين حال
الصحابة مشاركة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه في محاولة
فتح إسطنبول وهو في نحو الثمانين من عمره تطبيقاً
للاُمر بالمعروف وانطلاقاً من فهمه لقوله تعالى:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. ٢٠

فكان قبره في إسطنبول منارةً لمن جاء من بعده،
فانطلقوا مجاهدين حتى فتحوا الأندلس.

بُعِثَ التابعي عقبة بن نافع إلى أفريقيا فاتحاً في عهد الأمويين، ففتح القيروان، واستخلف بها زهيراً بن قيس وقال له:

«إني قد بعث نفسي من الله ﷻ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله». وأوصى بما يفعل بعده.

وتقدم فاتحاً في بلاد أفريقيا، حتى وصل إلى البحر فقال قولته المشهورة:

«يا رب لولا هذا البحر، لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك». ٢١

التعمق في التفكير

لقد صار أفراد المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش في ظلمة دامسة من «الذين يعلمون» بإرشاد النبي الكريم، فصار ليلهم نهاراً، وشتاؤهم صيفاً، وتعمقوا في التفكير وراحوا يتدبرون خلق الإنسان من ماء، والطيور من بيضة، والأشجار الباسقة من بذرة صغيرة... وصارت بوصلة حياتهم رضا الله تعالى، وسادت الرحمة والرأفة والعدل بينهم.

صار التبليغ مبتغاهم وألذ أعمالهم

كان الصحابة الكرام يمثلون شخصية المسلم الحقيقي، ويبحثون عن رضا الله في كل لحظة من حياتهم من غير أن يترددوا في تقديم التضحيات. وغدوا يأمرّون بالمعروف والخير والإحسان والبر وينهون عن المنكر والسوء والشر وسوء الخلق. وصارت أجمل لحظات حياتهم حين يبلغون رسالة التوحيد للناس.

كان لقاء النبي عليه الصلاة والسلام بالنساء لتبليغ الإسلام أقل من لقاءه بالرجال، لذلك أدّت الصحابية أم شريك دورًا عظيمًا في تبليغ الإسلام في مكة، وراحت تدعو نساء قريش للإسلام سرًّا، فلَمَّا كُشِفَ أمرُها، أرسلتها قريش مع أناس من قبيلة زوجها دوس كانوا يريدون ترك مكة، فجعل الدوسيُّون أم شريك على ناقه وتركوها بلا ماء وعذبوها حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها. ولمَّا رأى الدوسيُّون جلاذتها وثباتها على دينها، أسلموا.^{٢٢}

٢٢ انظر: ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص ١٥٥-١٥٧؛ ابن حبيب،

المحبر، ص ٨١-٨٢، ٩٢؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ج٢، ص ٦٦-

٦٧؛ ابن حجر، الإصابة، ج٤، ص ٤٤٧.



ولقيت امرأة رسول الله ﷺ وهو في سفر، فشهدت معجزةً من معجزاته وأكرمها، فلما رجعت إلى قومها، حدّثتهم عن رسول الله، فأسلم قومها جميعاً.^{٢٣}

وكان للجاريات مثل النساء الحرائر دورٌ في تبليغ الإسلام، ومن ذلك أن جارية من أصفهان أرشدت سلمان الفارسي إلى النبي عليه الصلاة والسلام.^{٢٤}

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه، فيقول له: ما لك إلي وما بيني وبينك معرفة؟ فيقول: كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني.^{٢٥}

الاعتصام بالقرآن الكريم

كان رسول الله ﷺ يعلم الصحابة الكرام القرآن الكريم حتى في أشد الأحوال وأصعب الظروف. أقبل أبو طلحة رضي الله عنه يوماً فإذا النبي ﷺ قائم يُقرئ أصحاب

٢٣ انظر: البخاري، التيمم، ٥.

٢٤ أبو نعيم الأصفهاني، تاريخ أصفهان، ج١، ص٤٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٧، ص٢٥؛ ابن حجر، الإصابة، ج٤، ص٢٣٣.

٢٥ المنذري، الترغيب والترهيب، ج٣، ٣٥٦/١٦٤.



الصُّفَّةَ عَلَى بطنه فصيل من حجر يقيم به صلبه من
الجوع. ٢٦.

لقد كان الصحابة الكرام حريصين على فهم كتاب
الله ومعرفة حكمه وأسراره والعمل بأحكامه، وكانوا
يجدون لذة الحياة في الإكثار من تلاوة القرآن والإنصات
إليه والعيش بمقتضاه، إي إنهم جعلوا حياتهم في سبيل
القرآن الكريم، فكان سعيهم في التبليغ سعيًا لم يُر له
مثيل في التاريخ. عُذِّبُوا وَظَلِمُوا وَكُتِبُوا، غير أنهم لم
يتراجعوا ولم يتركوا عقيدتهم، وتركوا أموالهم ودورهم
وهاجروا وضحوا بكل شيء كي يطبَّقوا ما جاء في كتاب
الله. وسعوا لفهم كل آية وتطبيقها، ولم يتركوا القرآن
حتى في أشد الظروف.

بينما كان رسول الله ﷺ، يقول: «من رجل يكلؤنا
[يحرسنا] الليلة؟»

فقام رجلان، عمار بن ياسر وعباد بن بشر، فقالا:
نحن يا رسول الله نكلؤك. وجعلت الريح لا تسكن،
وجلس الرجلان على فم الشعب، فقال أحدهما لصاحبه:



أي الليل أحب إليك، أن أكفيك أوله فتكفيني آخره؟ قال: اكفني أوله. فنام عمار بن ياسر، وقام عباد بن بشر يصلي، وأقبل عدو الله يطلب غرة وقد سكنت الريح، فلما رأى سواده من قريب قال: يعلم الله إن هذا لربيئة [طليلة] القوم! ففوق له سهمًا فوضعه فيه فانتزعه فوضعه، ثم رماه بآخر فوضعه فيه فانتزعه فوضعه، ثم رماه الثالث فوضعه فيه، فلما غلب عليه الدم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه: اجلس فقد أتيت! فجلس عمار، فلما رأى الأعرابي أن عمارًا قد قام علم أنهم قد نذروا به. فقال عمار: أي أخي، ما منعك أن توقظني به في أول سهم رمى به؟ قال: كنت في سورة أقرأها وهي سورة الكهف، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولولا أنني خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله ﷺ ما انصرفت ولو أتيتي على نفسي. ٢٧

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يعيشون في ظلال القرآن الكريم، فكان لكل ركن من أركان الدين لديهم لذة عجيبة، وكانت كل آية تنزل كمائدة تنزل عليهم



من السماء، وكانت مساعيهم لفهم القرآن الكريم كما ينبغي وعيشه ويكونوا قدوةً لغيرهم. وحسبنا دليلاً على عظمة إيمانهم طلبُ صحابيَّة أن يكون مهرها أن يعلمها زوجها ما يعلمه من القرآن الكريم.^{٢٨}

وقد اقتدى الصحابة الكرام بالنبي الكريم ﷺ في حرصه على تعليم القرآن، فامتلات المدينة المنورة بالحفاظ والعلماء.

ما الذي جعل الصحابة الكرام يتجهون نحو القرآن الكريم؟

أ. كان أغلب الصحابة الكرام أميين لا يخضعون لتأثير أي ثقافة غريبة عنهم، ثم أعملوا عقولهم وقلوبهم لفهم القرآن الكريم، وبذلك ظهرت ثقافة لا مثيل لها، قطعت الظلم والجور، ومنحت حياة مطمئنة للمخلوقات جميعاً.

ب. إن نزول القرآن الكريم بالتدرج سهّل على الصحابة الكرام حفظه وتطبيقه وعيشه.

٢٨ انظر: البخاري، النكاح، ٦، ٣٢، ٣٥؛ فضائل القرآن، ٢١، ٢٢؛

مسلم، النكاح، ٧٦.



ج. إن وجوب قراءة القرآن في الصلاة كان لهم تعليمًا دائمًا للقرآن، فوجدوا الأُسْ به، لا سيما مع قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة.

د. اعتبروا بخصص القرآن الكريم كي تكون أحكامهم صائبة، وأعمالهم مقبولة.

إعجاب العالم بهم

هكذا كان عصر السعادة الذي ظهر بفضل القرآن الكريم في مدة قصيرة. لقد كان العالم بأسره ينظر إلى ذلك المجتمع الفاضل بإعجاب، وما زال إلى اليوم مُعجَبًا به.

والسؤال هنا: إذا اجتمع علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء التربية ومهندسو المجتمع والفلاسفة وأمثالهم في القرن الواحد والعشرين، فهل يقدرّون على أن يربوا بعضًا من الناس تربية أخلاقية سليمة كما كان الناس في عصر السعادة؟

إن القرآن الكريم والسُّنة الشريفة أنشأ عصر السعادة، وهما إلى الآن محافظان على حيويتهما وتأثيرهما. والمجتمعات التي اعتصمت بالإسلام بقيت حيّة كل



حين، أما التي تركته وأهملته، فبادت وصارت صفحة من صفحات التاريخ.

لقد درس القائد الفرنسي لافاييت (توفي: ١٨٣٤م) مبادئ العدل والحرية في الإسلام، وأبدى إعجابه بخطابه للنبي الكريم: ”أيها العربي الأصيل، تعجز الكلمات عن الشناء عليك، فقد وجدتَ العدلَ ذاته!“.

أخلاق الإسلام عملية لا نظرية

ليست غاية الإسلام وضع نظرية في الأخلاق ولا الجدال العقيم لإشباع الأذهان التي تساورها الشكوك ولا اختراع فلسفة في الأخلاق بعيدة عن واقع الحياة، بل غايته إيجاد حلول عملية لحاجات الناس الأخلاقية، وتوعيتهم بعيوبهم الشخصية في هذا المجال ومساعدتهم على تجاوزها. إن الإسلام يسعى إلى نقل مبادئ الأخلاق التي أتى بها إلى الحياة بأسلم الطرق وأفضلها، ويهدف إلى وضع أخلاق لا تُعرَف فقط بل تُطبَّق. وحسبنا هنا أن نذكر نزول الآيات التي تنذر الناس وتنهاهم عن السوء بعد الآيات الأولى التي تأمر بالقراءة.^{٢٩}



وأما الفلاسفة الذين لم تخضع عقولهم لتربية الوحي الإلهي فقد ظلت أفكارهم التي وضعوها تحت مُسمّى الأخلاق حبيسة رفوف المكتبات، وأما التي انتقلت إلى الحياة فلم تدم لوقت طويل، لأن أفكارهم لم تُطبّق في حياتهم ولا في حياة أتباعهم، فلم تتجاوز حدود التنظير. فأرسطو مثلاً على الرغم من أنه واضح الأساس لمجموعة من قواعد فلسفة الأخلاق، فإننا لا نجد أحداً طبّق فلسفته فوجد السعادة بها، ذلك لأنه كان بعيداً عن الوحي الإلهي. وكذلك لم يُطبّق شيء مما ورد في كتاب الفارابي (المدينة الفاضلة) التي وصف فيها المجتمع المثالي، فظلت أفكاره بين سطور الكتاب ولم ترَ النور، لأنها لم تكن عملية ولا من مصدر يوافق إرادة الله. ولا ننسى أن الفلاسفة يقولون: «أرى كذا وكذا» أما الأنبياء فيقولون: «يقول الله كذا وكذا».

وخلاصة الكلام أن الله تعالى قد أظهر قدرته العظيمة إذ وهب نبيه الأمي أعظم الأخلاق التي تعلّم البشر جميعاً الحق والخير. وبين نموذج الإنسان الفاضل بصورة عملية في شخصية النبي الكريم التي كانت تجسيدا للأخلاق الفاضلة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

(البقرة، ٢٠٧)



قوة الإيمان

في مجتمع عصر السعادة

قوة الإيمان في مجتمع عصر السعادة

سعى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لعيش حياتهم ثابتين على إيمانهم، وكان الأساس في إيمانهم الفيوضات التي يتلقونها من رسول الله ﷺ.

لقد حُرِّمَتْ قلوب الصحابة الكرام في الجاهلية من الإيمان والأخلاق وإدراك الحقائق، فلمَّا اهدوا، تنزَّلت عليها رحمة الله وبركاته في مجالس النبي ﷺ. وكانت نتيجة المحبة والروحانيات التي انعكست من قلب رسول الله ظهور شخصيات الصحابة الكرام التي ستظل كالنجوم اللامعة تهدي الأمة.

تربى الإنسان في الجاهلية من غير أن يعرف الرحمة والرأفة في قلبه، فكان فظاً ظالماً قادراً على وأد ابنته التي هي من صلبه، ولكنه حينما اهتدى بنور الإسلام، صار مؤمناً رقيق القلب مرهف الحس يتحلى بأفضل الخصال كالترضية والإيثار والحكمة.



المسارعة إلى الإسلام

كان سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أول مولود للمسلمين بعد الهجرة، فجيء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فحنَّكه النبي بتمرّة ومسحه ودعا له وسَمَّاه عبد الله، ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبيع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر من أبيه، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه مقبلاً إليه ثم بايعه. ٣٠

ولمّا كان عبد الله بن هشام رضي الله عنه في السادسة من عمره، ذهبت به أمه زينب بنت حميد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله بايعه، فقال: «هو صغير» فمسح رأسه ودعا له.

وكان يخرج عبد الله بن هشام إلى السوق، فيشتري الطعام، فيلقاه ابن عمر، وابن الزبير رضي الله عنه، فيقولان له: «أشركنا فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد دعا لك بالبركة»، فيُشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هي، فيبعث بها إلى المنزل. ٣١

٣٠ انظر: مسلم، الآداب، ٢٥.

٣١ البخاري، الشركة، ١٣.



وعن أبي قرصافة رضي الله عنه قال:

«لما بايعنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين، قالت لي أمي وخالتي: يا بُني، ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن منه وجهاً، ولا أنقى ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأينا كأن النور يخرج من فيه»^{٣٢}.

التضحية بالروح في سبيل الإسلام

لا يخفى على مسلم تضحية سيدتنا سمية وسيدنا ياسر رضي الله عنهما بنفسيهما في سبيل المحافظة على إسلامهما، وضرب الصحابة الآخرون أروع الأمثلة في التضحية والثبات على الإسلام على الرغم من التعذيب الشديد الذي تعرّضوا له، ومن هؤلاء: عمار بن ياسر، وبلال الحبشي، وخباب بن الأرت، وصهيب بن سنان، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة، والمقداد بن عمرو. لقد حافظ الصحابة الكرامة على إيمانهم تحت التعذيب والظلم الشديد، وضحوا بأموالهم وأنفسهم حتى تبلغنا نعمة الإسلام العظيمة.



سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبابًا رضي الله عنه عما لقي من المشركين فقال: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري. فنظر، فقال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل، قال خباب: لقد أوقدت نارًا وسُحبت عليها، فما أطفأها إلا ودك [دهن] ظهري. ٣٣

وروي أن أن نفرًا من قريش فيهم أبو سفيان حضروا قتل زيد بن الدثنة فقال قائل منهم: يا زيد، أنشدك الله، أتحب أنك الآن في أهلك وأن محمدًا عندنا مكانك نضرب عنقه؟ قال: لا والله، ما أحب أن محمدًا يُشاك في مكانه بشوكة تؤذيه وأناي جالس في أهلي، قال: يقول أبو سفيان: والله ما رأيت من قوم قط أشد حُبًا لصاحبهم من أصحاب محمد له. ٣٤

ولمَّا قُتِلَ سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في غزوة أحد، أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها. فلقبها الزبير، فقال: أي أمة، إن رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمرُك أن ترجعي. قالت: ولم، وقد بلغني

٣٣ ابن الأثير، أسد الغابة، ج١، ص ٥٩٢.

٣٤ ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص ٥٦.



أنه مُثَّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك لأصبرنَّ وأحتسبنَّ إن شاء الله. فجاء الزبير فأخبره، فقال ﷺ: «خُلَّ سبيلها». فأتت إليه واستغفرت له ثم أمر به ودفن. ٣٥

لقد غدت النساء اللواتي كنَّ يضربن أنفسهن وينحنن ويمزقن ثيابهن لدى أصغر مصيبة أسوأ في الثبات والوقار بفضل الإيمان الراسخ بالله تعالى.

ومن الأمثلة لذلك أن أم سعد بن معاذ خرجت تعدو نحو رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ واقف على فرسه، وسعد بن معاذ أخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أُمي! فقال رسول الله ﷺ: «مرحبًا بها». فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ فقالت: أما إذ رأيتك سالمًا، فقد أشوت [استوت] المصيبة. فعزَّأها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال:

«يا أم سعد، أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعًا - وهم اثنا عشر رجلًا - وقد شفَعوا في أهليهم».



قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادعُ يا رسول الله لمن خلفوا. فقال رسول الله ﷺ:

«اللهم أذهب حزن قلوبهم واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا».

ثم قال رسول الله ﷺ:

«خلُّ أبا عمرو الدابة».

فخلى الفرس وتبعه الناس، فقال رسول الله ﷺ:

«يا أبا عمرو، إن الجراح في أهل دارك فاشية، وليس فيهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون دم والريح ريح مسك، فمن كان مجروحًا فليقر في داره وليداوِ جرحه، ولا يبلغ معي بيتي عزمةً مني».

فنادى فيهم سعد: عزمة رسول الله ﷺ ألا يتبع رسول الله ﷺ جريح من بني عبد الأشهل، فتخلف كل مجروح، فباتوا يوقدون النيران ويذاوون الجراح، وإن فيهم لثلاثين جريحًا.^{٣٦}



ومن الصحابيَّات اللاتي أظهرن ثباتًا عظيمًا وذلك نتيجة الإيمان بالله الصحابيةُ السميراء رضي الله عنها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال:

لما كان يوم أحد خاض أهل المدينة خيضة، وقالوا: قُتِلَ محمد. حتى كثرت الصوارخ في ناحية المدينة، فخرجت السميراء، فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها لا أدري أيهم استقبلت به أولاً، فلما مرت على أحدهم، قالت: من هذا؟ قالوا: أبوك أخوك زوجك ابنك، تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ يقولون: أمامك حتى دُفعت إلى رسول الله ﷺ، فأخذت بناحية ثوبه، ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذ سلمت من عطب. ^{٣٧}

الهجرة والجهاد في سبيل الله

ترك الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم جميعاً- أرضهم وأولادهم وأموالهم وهاجروا إلى ديار بعيدة كي يحافظوا على دينهم وينجو من ظلم المشركين في

٣٧ انظر: الواقدى، مغازي، ج١، ص ٢٩٢؛ الهيثمي، مجمع الزوائد،

ج٦، ص ١١٥.



مكة، وقد أكد الله سبحانه وتعالى قوة إيمانهم في كتابه العزيز إذ قال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. ٣٨

وقد جعل النبي ﷺ على رأس قافلة المهاجرين الأولى سيدنا جعفرًا بن أبي طالب، ولما كلم سيدنا جعفر النجاشي، بين كيف تحول المجتمع الجاهلي إلى مجتمع عصر السعادة، وأظهر الإيمان الراسخ في قلوب الصحابة الكرام، إذ قال:

«أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان،



وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصللة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك»^{٣٩}

وبعد مرور سنوات رجعت آخر قافلة للمهاجرين من الحبشة عبر البحر لدى فتح خيبر، وكان من بينهم أسماء بنت عميس رضي الله عنها. دخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت:

٣٩ أحمد، ج١، ص٢٠١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٦، ص٢٥-٢٧.



أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع النبي ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار - أو في أرض - البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وإيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤدّي ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال: كذا وكذا؟ قال: «فما قلت له؟» قالت: قلت له: كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان»، قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ. قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني.^{٤٠}

وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ
١٤٠٩

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

[الحجر، ٩٩]

حُبُّ الْعِبَادَةِ

فِي مَجْتَمَعِ عَصْرِ السَّعَادَةِ

حب العبادة في مجتمع عصر السعادة

كانت العبادات للصحابة الكرام لحظات للقاء الله تعالى والتقرب إليه، لذلك كانت فُرصًا لا تُعوَّض وسببًا للطمأنينة والسكينة. كانوا رضوان الله عليهم يؤدون عباداتهم على أمل أن يكونوا من المحظوظين الذين يخاطبهم الله تعالى، ويرون في كل عبادة شرفًا عظيمًا ونعمة كبيرة.

الحرص على الوضوء دائمًا

كان المسلمون في عصر السعادة يحرصون على أن يكونوا على وضوء دائمًا، وتجديد الوضوء قبل كل صلاة.

فقد رُوِيَ أنه أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالًا رضي الله عنه فقال: «يا بلال بَمَ سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي...»،



فقال بلال: يا رسول الله ما أذنتُ قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها ورأيت أن لله عليّ ركعتين.

فقال رسول الله ﷺ: «بهما»^{٤١}.

عن أبي غطفان الهذلي قال:

سمعت عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في مجلسه في المسجد، فلما حضرت الصلاة قام فتوضأ وصلّى، ثم عاد إلى مجلسه، فلما حضرت العصر قام فتوضأ وصلّى، ثم عاد إلى مجلسه، فلما حضرت المغرب قام فتوضأ وصلّى، ثم عاد إلى مجلسه، فقلت: أصلحك الله، أفريضة، أم سنة الوضوء عند كل صلاة؟ قال: أوفطنت إلي، وإلى هذا مني؟ فقلت: نعم، فقال: لا، لو توضأت لصلاة الصبح، لصليت به الصلوات كلها، ما لم أحدث، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من توضأ على كل طهر، فله عشر حسنات»، وإنما

رغبت في الحسنات.^{٤٢}

٤١ الترمذي، المناقب، ١٧/٣٦٨٩؛ أحمد، ج٥، ص٣٥٤.

٤٢ ابن ماجه، الطهارة، ٧٣.



وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يحسنون الوضوء، عن أبي حازم وهو من التابعين، قال:

كنتُ خلف أبي هريرة، وهو يتوضأ للصلاة فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه فقلت له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ أنتم هاهنا؟ لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول:

«تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». ٤٣

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال:

«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله

بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا»،

قالوا: أولسنا إخوانك؟ يا رسول الله قال:

«أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»،

فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك؟ يا

رسول الله فقال:

«أرأيت لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بين ظهري

خيلٌ دُهمٌ بهم ألا يعرف خيله؟»



قالوا: بلى يا رسول الله قال:

«فإنهم يأتون غُرًّا مُحَجَّلِينَ من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليزادن رجال عن حوضي كما يزداد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: سَحَقًا سَحَقًا».^{٤٤}

الصلاة قرّة عين

كان المسلمون في عهد رسول الله ﷺ إذا صلوا، شعروا بأنهم في حال "وصال مع الله تعالى"، وصلُّوا صلاة مودّع لهذه الدنيا.^{٤٥}

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال:

كان رجلان أخوان. فهلك أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة. فذُكرت فضيلة الأول عند رسول الله ﷺ. فقال:

«ألم يكن الآخر مسلمًا؟»

٤٤ مسلم، الطهارة، ٣٩؛ الفضائل، ٢٦؛ النسائي، الطهارة، ١١٠/١٥٠؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٦؛ الموطأ، الطهارة، ٢٨؛ أحمد، ج٢، ٣٠٠، ٤٠٨.

٤٥ انظر: ابن ماجه، الزهد، ١٥؛ أحمد، ج٥، ص ٤١٢.



قالوا: بلى. يا رسول الله، وكان لا بأس به. فقال رسول الله ﷺ:

«وما يدريكُم ما بلغت به صلاته؟ إنما مثَل الصلاة كمثل نهر غمرٍ عذب بباب أحدكم، يقتحم فيه كل يوم خمس مرات. فما ترون ذلك يبقي من درنه؟ فإنكم لا تدرون ما بلغت به صلاته؟»^{٤٦}.

ورُوي أن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه كان يصلي في حائطه فطار دبسي [طائر]، فطفق يتردد، يلتمس مخرجاً. فأعجبه ذلك. فجعل يُتبعه بصره ساعة. ثم رجع إلى صلاته، فإذا هو لا يدري كم صلى؟ فقال: لقد أصابتنِي في مالي هذا فتنة، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة وقال: يا رسول الله، هو صدقة لله، فضعه حيث شئت.^{٤٧}

وكتب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله:

«إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها، حفظ دينه. ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع»^{٤٨}.

٤٦ الموطأ، قصر الصلاة، ٩١.

٤٧ الموطأ، الصلاة، ٦٩.

٤٨ الموطأ، وقوت الصلاة، ٦.



وعن المُسَوَّر بن مَخرمة قال:

دخلت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو مُسَجِي فقلت: كيف ترونه؟ قالوا: كما ترى. قلت: أيقظوه بالصلاة، فإنكم لن توقظوه لشيء أفزع له من الصلاة. فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين؟ فقال: ها الله إذاً ولا حق في الإسلام لمن ترك الصلاة. فصلى وإن جرحه ليثعب [يسيل] دمًا.^{٤٩}

وعن العلاء بن عبد الرحمن، أنه دخل على أنس بن مالك في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد، فلما دخلنا عليه، قال: أصليتُم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا الساعة من الظهر، قال: فصلوا العصر، فقمنا، فصلينا، فلما انصرفنا، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا».^{٥٠}

٤٩ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ١، ص ٢٩٥. انظر أيضًا: الموطأ،

الطهارة، ٥١؛ ابن سعد، الطبقات، جـ ٣، ص ٣٥.

٥٠ مسلم، المساجد، ١٩٥؛ الموطأ، القرآن الكريم، ٤٦.



وكان رسول الله ﷺ ينبّه الصحابة الكرام في موضوع تعديل الأركان في الصلاة، فيحرصون على هذا الأمر. رُوِيَ أَنَّ حذيفة رضي الله عنه دخل المسجد، فإذا رجل يصلي مما يلي أبواب كندة، فجعل لا يتم الركوع ولا السجود، فلما انصرف، قال له حذيفة: منذ كم هذه صلاتك؟ قال: منذ أربعين سنة، قال فقال له حذيفة رضي الله عنه: ما صليت منذ أربعين سنة، ولو متَّ وهذه صلاتك لمتَّ على غير الفطرة التي فطر عليها محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قال ثم أقبل عليه يعلمه، فقال: إن الرجل ليخفف في صلاته وإنه ليلم الركوع والسجود.^{٥١}

المسارعة إلى الجماعة

من أبرز سمات مجتمع عصر السعادة زوال العصبية القبلية وحلول أخوة الدين محلها، فكان المجتمع الإسلامي آنذاك مجتمعاً متعاوناً متعاضداً، ومن أجلى صور هذا التعاون والتعاضد الصلاة في جماعة.

وكان رسول الله ﷺ بوصفه إماماً للمسلمين يعرف المصلين جيداً، فيدرك مَنْ يغيب من أصحابه عن الصلاة، فيسأل عنه وعن سبب غيابه. وكان يعود

المريض مع أصحابه، ويهتم بشؤون المسلمين ويحلُّ مسائلهم.

وقد حثَّ عليه الصلاة والسلام أمته على الصلاة في جماعة، فقال:

«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾».^{٥٢}

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

«لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه، أو مريض، إن كان المريض ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة».^{٥٣}

رُوي أن رجلين كانا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أحدهما يباعاً فإذا سمع النداء بالصلاة، فإن كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وضعاً، وإن كان بالأرض لم يرفعه. وكان الآخر قيناً يعمل السيوف للتجارة، فكان إذا كانت مطرقة على السندان أبقاها موضوعة، وإن كان قد رفعها ألقاها من

٥٢ ابن ماجه، المساجد، ١٩.

٥٣ مسلم، المساجد، ٢٥٦-٢٥٧.



وراء ظهره إذا سمع الأذان، فأنزل الله تعالى ثناءً عليهما وعلى كل من اقتدى بهما، قوله:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
وَالْأَبْصَارُ﴾^{٥٤، ٥٥}

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه رأى ناسًا من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا أمتعتهم وقاموا إلى الصلاة، فقال: هؤلاء الذين قال الله تعالى:

﴿لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^{٥٦}.

إِعْطَاءُ الزَّكَاةِ

كان المجتمع في عصر السعادة يولي الزكاة أهمية كبيرة، فقد قرن الله تعالى إعطاء الزكاة بإقامة الصلاة في كثير من آيات الكتاب المبين. وكان الصحابة الكرام يعطون الزكاة والصدقات مدركين عظمة هذه العبادة وبشعور أنهم يعطونها ليد الله تعالى.

٥٤ النور، ٣٧.

٥٥ القرطبي، تفسير، ج٢، ١٢، ص ٢٧٩.

٥٦ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٧، ص ٨٣.



فالعباس رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في تعجيل صدقته قبل أن تحلَّ، فرخص له في ذلك.^{٥٧}

وروي أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابنة لها، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب، فقال لها:
«أعطين زكاة هذا؟»

قالت: لا، قال:

«أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟»، فخلعتهما، فألقتهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقالت: هما لله صلى الله عليه وسلم ولرسوله.^{٥٨}

قدم عليه صلى الله عليه وسلم وفدٌ تُجيب وهم من السكون ثلاثة عشر رجلاً قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأكرم منزلهم، وقالوا: يا رسول الله، سُقنا إليك حقَّ الله في أموالنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«رُدُّوها فاقسموها على فقرائكم».

٥٧ أبو داود، الزكاة، ٢٢/١٦٢٤؛ الترمذي، الزكاة، ٣٧/٦٧٨؛ ابن ماجه، الزكاة، ٧.

٥٨ أبو داود، الزكاة، ٤/١٥٦٣.



قالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تجيب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الهدى بيد الله عز وجل، فمن أراد به خيراً، شرح صدره للإيمان».

وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء، فكتب لهم بها، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم رغبة، وأمر بلالاً رضي الله عنه أن يحسن ضيافتهم، فأقاموا أياماً ولم يطيلوا اللبث، ف قيل لهم: ما يعجبكم؟ فقالوا: نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلامنا إياه، وما رد علينا، ثم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعوناه، فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود.^{٥٩}

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم عيد، فصلى ركعتين لم يصل قبل ولا بعد، ثم مال على النساء، ومعه بلال فوعظهن،

٥٩ ابن القيم، زاد المعاد، جـ ٣، ص ٦٥٠-٦٥١؛ ابن سعد، الطبقات،

جـ ١، ص ٣٢٣.



وأمرهن أن يتصدقن، فجعلت المرأة تلقي القلب
[السوار] والخُرْص [الحلقة في الأذن].^{٦٠}

وعنه عليه السلام قال:

«مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ يَبْلُغُهُ حِجُّ بَيْتِ رَبِّهِ، أَوْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ
زَكَاةٌ، فَلَمْ يَفْعَلْ، يَسْأَلُ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ»،

فقال رجل: يا ابن عباس، اتق الله، فإنما يسأل
الرجعة الكفار؟ فقال:

سأتلو عليك بذلك قرآناً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.
وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنُ
مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا
وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^{٦١، ٦٢}

٦٠ البخاري، الزكاة، ٢١، ٣٣.

٦١ المنافقون، ٩-١١.

٦٢ الترمذي، تفسير القرآن، ٦٣/٣٣١٦.



وكان الناس في عصر السعادة حريصين على المحافظة على أموال الزكاة وإيصالها إلى مستحقيها. فعن الفضل بن عميرة أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو متحجز بعباءة يهنأ [يظليه بالقطران] بغيراً من إبل الصدقة فقال: يا أحنف ضع ثيابك وهلم وأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين، فقال رجل: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، فهلاً تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا؟ فقال عمر: يا ابن فلانة، وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف بن قيس هذا، إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيدته من النصيحة وأداء الأمانة. ٦٣

الإنفاق والصدقة

أدرك الناس في عصر السعادة أن الإنفاق في سبيل الله يدفع البلاء والمصيبة، ويجعل من صاحبها ينال محبة الله تعالى، فهو القائل في كتابه الكريم:



﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ٦٤

عن أم بَجِيد رضي الله عنها أنها قالت:

يا رسول الله، صلى الله عليك، المسكين ليقوم على
بابي، فما أجد له شيئاً أعطيه إياه، فقال لها رسول الله ﷺ:
«إن لم تجدي له شيئاً تعطينه إياه إلا ظلماً مُحَرَقاً،
فادفعيه إليه في يده». ٦٥

فالمؤمن إن لم يجد شيئاً يعطيه، يُرضي قلبَ السائل
بكلمات طيبة، فقد أمر الله تعالى بذلك حين قال: (قولاً
ميسوراً).

وقد بين أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه بركة الإنفاق في
قوله: «كان رسول الله ﷺ إذا أمرنا بالصدقة، انطلق أحدنا
إلى السوق، فيحامل [يتكلف الحمل]، فيصيب المُدَّ،
وإن لبعضهم اليوم لمئة ألف». ٦٦

٦٤ البقرة، ١٩٥.

٦٥ أبو داود، الزكاة، ٣٣/١٦٦٧؛ الترمذي، الزكاة، ٢٩/٦٦٥؛
النسائي، الزكاة، ٧٠/٢٥٦٦؛ أحمد، ج٦، ص٣٨٣.

٦٦ البخاري، الزكاة، ١٠.



وقال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقته حتى يُفصل بين الناس».

وكان أبو الخير من رواة هذا الحديث لا يخطئه يوم
إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة أو كذا.^{٦٧}

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك عندي
مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، قال:
فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت
لأهلك؟» قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال:
«يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله
ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً.^{٦٨}

وعن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري أن
أمه أرادت أن توصي، ثم أخّرت ذلك إلى أن تصبح.
فهلكت، وقد كانت همت بأن تعتق. فقال عبد الرحمن:
فقلت للقاسم بن محمد: أينفعها أن أعتق عنها، فقال
القاسم: إن سعد بن عبادَة قال لرسول الله ﷺ: إن أمني

٦٧ أحمد، ج٤، ص١٤٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٣، ص١١٠.

٦٨ الترمذي، المناقب، ١٦ / ٣٦٧٥.



هلكت فهل ينفعها أن أعتق عنها؟ فقال رسول الله ﷺ:
«نعم». ٦٩.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أمي
أفتلّنت نفسها وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق
عنها؟ قال: «نعم تصدق عنها». ٧٠.

وروي أن حارثة بن النعمان رضي الله عنه كان قد كُفَّ بصره،
فجعل خيطاً من مصلاه إلى باب حجرته، ووضع عنده
مكتلاً فيه تمر وغير ذلك، فكان إذا سلّم المسكين
أخذ من ذلك التمر ثم أخذ على الخيط حتى يأخذ إلى
باب الحجرة فيناوله المسكين، فكان أهله يقولون: نحن
نكفيك فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن مناولة المسكين تقي مية سوء». ٧١.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: قال رسول
الله ﷺ: «أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً». قالت: فكن

٦٩ الموطأ، العتق، ١٣.

٧٠ البخاري، الوصايا، ١٩؛ أبو داود، الوصايا، ١٥ / ٢٨٨١.

٧١ ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٤٨٨؛ الطبراني، المعجم الكبير،
ج٣، ص٢٢٩، ص٢٣١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٣، ص١١٢.



حُبَّ العبادة في مجتمع عصر السعادة ﷺ

يتطاولن أيتهن أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب،
لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق. ٧٢

فنفهم من كل ذلك أن الناس في عصر السعادة
كانوا يسارعون إلى الإنفاق فقيروهم وغنيهم، ومريضهم
وسليمهم.

ورُوِيَ أن رجلاً قال لعثمان بن عفان: ذهبتم يا
أصحاب الأموال بالخير تتصدقون، وتعتقون، وتحجون،
وتنفقون، فقال عثمان: «وإنكم لتغبطوننا؟»، قال: «إنا
لنغبطكم»، قال: «فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهده خير
من عشرة آلاف درهم غيض من فيض». ٧٣

الصيام عبادة فريدة

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت:
مُرني بأمر آخذه عنك، قال:

«عليك بالصوم فإنه لا مثل له». ٧٤

٧٢ مسلم، فضائل الصحابة، ١٠١.

٧٣ البيهقي، شعب الإيثار، ج٥، ص ١٢٧؛ علي المتقي، كنز العمال،
ج٦، ٦١٢/١٧٠٩٨.

٧٤ النسائي، الصيام، ٤٣.



عن ابن سيرين قال:

خرجت أم أيمن مهاجرة إلى الله وإلى رسوله ﷺ وهي صائمة ليس معها زاد ولا حمولة، ولا سقاء في شدة حر تهامة، وقد كادت تموت من الجوع والعطش حتى إذا كان الحين الذي فيه يفطر الصائم سمعت حفيفاً على رأسها، فرفعت رأسها، فإذا دلو معلق برشاء أبيض. قالت: فأخذته بيدي، فشربت منه حتى رويت، فما عطشت بعد. قال: فكانت تصوم، وتطوف لكي تعطش في صومها، فما قدرت على أن تعطش حتى ماتت.^{٧٥}

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«كان أبو طلحة لا يصوم [تطوعاً] على عهد النبي ﷺ من أجل الغزو، فلما قبض النبي ﷺ لم أره مفطراً إلا يوم فطر أو أضحى».^{٧٦}

وكان أبو طلحة رضي الله عنه فارساً مقدماً يترك التطوع بالصوم من أجل الغزو خشية أن يضعفه عن القتال،

٧٥ عبد الرزاق، مصنف، ج٤، ص٣٠٩؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ج٢، ص٦٧؛ ابن حجر، الإصابة، ج٨، ص١٧٠؛ ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٢٢٤.

٧٦ البخاري، الجهاد، ٢٩.



وعندما كُبر، تفرَّغ للصوم. ولمَّا قرأ في آخر عمره قوله تعالى: (انفروا خفافاً وثقالاً) قال: استنفرنا الله شيوخاً وشباناً، جهَّزوني، فقال له بنوه: نحن نغزو عنك، فأبى فجهَّزوه فغزا في البحر فمات فدفنوه بعد سبعة أيام ولم يتغير.^{٧٧}

ورُوِيَ أن أبا بردة رضي الله عنه اصطحبَ هو ويزيد بن أبي كبشة في سفر، فكان يزيد يصوم في السفر، فقال له أبو بردة: سمعت أبا موسى مراراً يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد، أو سافر، كُتِبَ له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا».^{٧٨}

وكان شهر رمضان يُستقبل خير استقبال في عصر السعادة، إذ كان المسلمون يحرصون على الاستفادة من اللحظات الروحانية في هذا الشهر. ورُوِيَ أن عمرًا رضي الله عنه قال لنشوان [سكران] في رمضان:
«ويلك، وصبياننا صيام!»^{٧٩}

٧٧ ابن حجر، فتح الباري، ج٦، ص ٤٢.

٧٨ البخاري، الجهاد، ١٣٤.

٧٩ البخاري، الصوم، ٤٧.



وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال:

«لولا ثلاث لأحببت أن لا أبقى في الدنيا: وضع وجهي لخالقي في الليل والنهار، وظماً الهواجر، ومقاعد أقوام ينتقون الكلام كما تُنتقى الفاكهة».^{٨٠}

الحج والعمرة

كان الصحابة الكرام يولون الحج والعمرة أهمية عظيمة، فيسارعون للطواف حول الكعبة ولا يتركون هذه العبادة السامية، وكانوا يتنفسون من هواء تلك الأراضي المقدسة، ويُسبِعون أرواحهم من الغذاء المعنوي الذي ينزّل على الحرّمين. وكانوا يسيرون على خُطى الأنبياء التي تركوها في تلك البقاع، ويتفكرون في قصصهم المعبرة. وكانوا يعظمون شعائر الله ويذكرون الله كثيراً في تلك البلدة المباركة.

كان البراء بن معرور رضي الله عنه من الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الأولى، وكان وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيه الموسم بمكة العام المقبل، فلم يبلغ العام حتى توفي، فلما حضرته الوفاة قال لأهله: استقبلوا بي الكعبة



لموعدي محمداً، فإني وعدته أن آتي إليه، فهو أول من استقبل الكعبة حياً وميتاً. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتى قبره في أصحابه، فكبر عليه وصلى.^{٨١}

وعن عائشة أم المؤمنين ﷺ، قالت:

قلت: يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال:

«لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور»،

فقالت عائشة ﷺ:

«فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ».^{٨٢}

وعن عمر ﷺ، قال: استأذنت النبي ﷺ في العمرة،

فأذن لي، وقال: «لا تنسنا يا أخي من دعائك»، فقال كلمة

ما يسرني أن لي بها الدنيا.^{٨٣}

ولم يتردد الصحابة الكرام في تقديم التضحيات

ومكابدة المصاعب من أجل الحج والعمرة.

فعن عائشة ﷺ أنها قالت:

٨١ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج١، ص ١٥٢-١٥٣.

٨٢ البخاري، جزاء الصيد، ٢٤.

٨٣ أبو داود، الوتر، ٢٣/١٤٩٨؛ الترمذي، الدعوات، ١٠٩/٣٥٦٢؛

ابن ماجه، المناسك، ٥.



يا رسول الله، يصدر الناس بُنُسكين [الحج والعمرة]، وأصدر بنسك [الحج فقط]؟ ف قيل لها:

«انتظري، فإذا طهرتِ، فاخرجي إلى التنعيم، فأهلي ثم اثبتنا بمكان كذا، ولكنها على قدر نفقتك أو نصبك».^{٨٤}

وكان الصحابة الكرام حريصين على حسن معاملة الناس في الحج، وقد أوصى النبي ﷺ عمرًا فقال:

«يا عمر، إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة، فاستلمه، وإلا فاستقبله فهلل وكبر».^{٨٥}

وكانت عائشة رضي الله عنها تطوف حَجْرَةَ^{٨٦} من الرجال، لا تخالطهم، فقالت امرأة: انطلقني نستلم يا أم المؤمنين، قالت: «انطلقني عنك»^{٨٧}، وأبت، يخرجن متنكرات بالليل، فيطفن مع الرجال، ولكنهن كن إذا دخلن البيت، فمن حتى يدخلن، وأخرج الرجال.^{٨٨}

٨٤ البخاري، العمرة، ٨.

٨٥ أحمد، ج١، ص٢٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٣، ص٢٤١.

٨٦ أي ناحية محجورة عن الرجال، أي معتزلة.

٨٧ أي اتركي هذا عن نفسك.

٨٨ البخاري، الحج، ٦٤.



وعن أم سلمة رضي الله عنها - زوج النبي صلى الله عليه وسلم - قالت: شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنني أشتكى، فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ يصلي إلى جنب البيت وهو يقرأ: «والطور وكتاب مسطور»^{٨٩}.
 فيفهم من هذه الروايات جواز طواف النساء مع الرجال، ولكن الأصوب طوافهن وراء الرجال، فالطواف عبادة مثل الصلاة، فينبغي أن تكون النساء وراء الرجال كما في الصلاة.

الحرص على علم الكتاب والسنة

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو

الْأَلْبَابِ﴾^{٩٠}

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا

مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾^{٩١}.

٨٩ البخاري، الحج، 64.

٩٠ ص، ٢٩.

٩١ فاطر، ٢٩.



كان رسول الله ﷺ يقرأ الآيات التي تنزل عليه للرجال من الصحابة أولاً ثم النساء،^{٩٢} فكان الصحابة يحفظونها، ويكتبون بعضها.

وكانت كتابة الوحي مشهورة بين الصحابة الكرام، وكان الذي لا يعرف الكتابة، يأتي بأدوات الكتابة إلى المسجد، فيطلب من الكتبة كتابة الآيات النازلة. وبذلك كُتِبَ القرآن الكريم من بداية عهد الإسلام لا بل حتى حينما كان المسلمون يُعذَّبون في مكة، فسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد سلم حين قرأ آيات كُتِبَتْ على صحيفة.^{٩٣} ولما لقي رافع بن مالك رسول الله ﷺ بالعقبة أعطاه ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت، فقدم به رافع المدينة، ثم جمع قومه فقرأ عليهم في موضعه.^{٩٤}

وكان الواحد من الصحابة إذا دخل بيته، بدارته زوجه بهذين السؤالين: كم نزل اليوم من القرآن؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ؟^{٩٥}

٩٢ ابن اسحق، سيرة، ص ١٢٨.

٩٣ انظر: ابن هشام، ج١، ص ٣٦٩-٣٧١.

٩٤ ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص ٣٧٠.

٩٥ كشك، في رحاب التفسير، ج١، ص ٢٦.



وقد بيّن الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه اهتمام الصحابة الكرام بالقرآن الكريم حين قال:

«والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه».^{٩٦}

وكان رضي الله عنه يُقرئ الرجل الآية، ثم يقول:

«لهي خير مما طلعت عليه الشمس، أو مما على الأرض من شيء» حتى يقول ذلك في القرآن كله.^{٩٧}

وبيّن رضي الله عنه حرص الصحابة الكرام على الانشغال بعلوم القرآن إذ قال: «مَنْ أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين».^{٩٨}

وكان الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم جميعاً- يجتمعون ويتدارسون القرآن الكريم،^{٩٩} لا سيما أصحاب

٩٦ البخاري، فضائل القرآن، ٨.

٩٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٧، ص١٦٦.

٩٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٧، ص١٦٥.

٩٩ خطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج٢، ص١٢٦.



الصُّفَّة الذين كانوا يقيمون في المسجد ويقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون.^{١٠٠}

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يتفكر في آيات القرآن ويطبّقها في حياته، وخير دليل على ذلك أنه تعلّم البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلمّا ختمها نحر جزوراً.^{١٠١}

وروى الإمام مالك أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قد مكث على سورة البقرة ثمانين سنين يتعلمها.^{١٠٢}
وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

«لأن أعرب آية من القرآن أحب إلي من أن أحفظ آية».^{١٠٣}

وروي أن رجلاً أتى زيد بن ثابت، فقال له: كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ فقال زيد: «حسن. ولأن أقرأه في نصف، أو عشر، أحب إلي». وسلني لم ذاك؟ قال: فإنني أسألك. قال زيد: «لكي أتدبره وأقف عليه».^{١٠٤}

١٠٠ البخاري، الجهاد، ٩؛ مسلم، الإمارة، ١٤٧.

١٠١ القرطبي، تفسير، ج١، ص ٤٠.

١٠٢ موطأ، القرآن، ١١.

١٠٣ ابن الأنباري، كتاب إيضاح الوقف، ج١، ص ٢٣.

١٠٤ موطأ، القرآن، ٤.



وقد حثَّ سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه على جمع القرآن ونسخ المصاحف. ١٠٥

وعن عبيد الله بن عبد الله قال:

«إن أول من جمع القرآن في مصحف وكتبه عثمان بن عفان، ثم وضعه في المسجد فأمر به يُقرأ كل غداة». ١٠٦

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الصحابة الكرام إلى بلدان مختلفة لتعليم الناس الكتاب والسنة. ١٠٧ فمثلاً بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعباً بن عمير إلى المدينة ليعلِّم الناس دين الإسلام ويقرأ القرآن عليهم. ١٠٨

وعن مسلم بن مشكم قال لي أبو الدرداء:

«اعدد من في مجلسنا، قال: فجاؤوا ألفاً وستمئة ونيفاً، فكانوا يقرؤون، ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا صلى الصبح انفتل، وقرأ جزءاً، فيحذقون به، يسمعون ألفاظه». ١٠٩

١٠٥ انظر: ابن شبة، تاريخ المدينة، ج٣، ص ١٠٠٢.

١٠٦ ابن شبة، تاريخ المدينة، ج١، ص ٧.

١٠٧ الدارمي، السنن، ١، ١٣٥؛ ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٣.

١٠٨ ابن هشام، سيرة، ج٢، ص ٤٣-٤٦؛ أبو نعيم، دلائل النبوة، ج١، ص ٣٠٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٦، ص ٤١.

١٠٩ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٣٤٦.



وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قام فخطب الناس في البصرة،
فقرأ عليهم سورة البقرة، وبَيَّن ما فيها. ١١٠

وكان علي رضي الله عنه في مسجد الكوفة، فسمع ضجة
شديدة، فقال: ما هؤلاء؟ فقال: قوم يقرؤون القرآن، أو
يتعلمون القرآن، فقال: أما إنهم كانوا أحبَّ الناس إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم. ١١١

كان أبو عبد الرحمن السُّلَمي معلماً للقرآن، وظل
كذلك سنوات طويلة. ويُروى أنه قال: ذاك الذي أقعدي
مقعدي هذا، قاصداً حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«خيركم مَنْ تعلم القرآن وعلمه». ١١٢

وكان الصحابة الكرام حريصين على تعلم السُّنَّة
أيضاً، وحسبنا أن نذكر بأن عروة بن الزبير، قال: قالت
لي عائشة: يا ابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مارَّ
بنا إلى الحج، فالفقه فسائله، فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم

١١٠ الحاكم، ج٢، ٣٠٠/٣٠٨٣.

١١١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٧، ص١٦٢.

١١٢ البخاري، فضائل القرآن، ٢١؛ الترمذي، فضائل القرآن،
٢٩٠٧/١٥.



حُب العبادَة في مجتمع عصر السعادة

علمًا كثيرًا، قال: فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله ﷺ. ١١٣

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يكتب حديث النبي ﷺ، فصار بعد حين من أعلم الناس بالحديث. ١١٤

وكان الصحابة الكرام شبابهم وكبارهم في السن يطلبون العلم. ١١٥

الشفاء ببركة القرآن الكريم

كان القرآن الكريم حاضرًا في أدق تفاصيل حياة الصحابة الكرام، فكانوا يلجؤون إليه في كل أمرهم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر، فمروا بحي من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم. فقالوا لهم: هل فيكم راق؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب، فقال رجل منهم: نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ الرجل، فأعطي قطيعًا من غنم، فأبى أن يقبلها، وقال حتى أذكر

١١٣ مسلم، العلم، ١٤.

١١٤ البخاري، العلم، ٣٩.

١١٥ انظر: البخاري، العلم، ١٥.



ذلك للنبي ﷺ. فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له فقال: يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب. فتبسم، وقال: «وما أدراك أنها رقية؟». ثم قال:

«خذوا منهم، واضربوا لي بسهم معكم»^{١١٦}.

وإنما قوله ﷺ: «اضربوا لي بسهم معكم» أي بنصيب،

تطبيياً لقلوبهم ومبالغة في تعريفهم أنه حلال.^{١١٧}

وعن عبد الملك بن عمير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«فاتحة الكتاب شفاء من كل داء»^{١١٨}.

وروي أن رجلاً يدعى علاقة بن سحار، أتى النبي ﷺ

فأسلم، ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم عندهم

رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: إنا حدثنا أن

صاحبكم هذا قد جاء بخير، فهل عندك شيء تداويه؟

فرقيته بفاتحة الكتاب، فبرأ، فأعطوني مئة شاة، فأتيت

رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «هل إلا هذا» وقال في

١١٦ مسلم، السلام، ٦٥، ٦٦؛ البخاري، فضائل القرآن، ٩؛ الطب،

٣٣، ٣٩.

١١٧ العيني، عمدة القاري، ج١، ٢١، ص ٢٧١-٢٧٢.

١١٨ الدارمي، فضائل القرآن، ١٢.



موضع آخر: «هل قلت غير هذا؟» قلت: لا، قال: «خذها فلعمرى لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق». ١١٩

الاستغفار بالأسحار

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. ١٢٠

لقد فضّل الناس مجتمع عصر السعادة قيام الليل والأذكار والأوراد وقراءة القرآن في الأسحار على النوم على الفرش الناعمة وكانوا يرون في وقت الأسحار «وقت الاستغفار والدعاء»، لذلك كان يُسمع دويّ كدوي النحل من بيوت الصحابة الكرام في ظلمات الليالي.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل». ١٢١

١١٩ أبو داود، الطب، ١٩/٣٨٩٦؛ أحمد، ج٥، ص ٢١١.

١٢٠ الذاريات، ١٧-١٨.

١٢١ البخاري، المغازي، ٣٨.



وعن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تهجد ليلة في بيتي، فسمع صوت عبّادٍ يصلي في المسجد، فقال: فقال: «يا عائشة أصوت عباد هذا؟»، قلت: نعم، قال: «اللهم ارحم عبّادًا». ١٢٢

أخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء ثمان أو تسع ليال، فقال أبو بكر: يا رسول الله لو إنك عَجَلت لكان أمثل لقيامنا من الليل. قال: فعَجَل بعد ذلك. ١٢٣

كان عمر رضي الله عنه إذا قام من الليل، قال:

«قد ترى مقامي، وتعرف حاجتي، فارجعني من عندك يا الله بحاجتي، مُفْلَجًا مُنَجَّحًا مُسْتَجِيبًا مُسْتَجَابًا لي، قد غفرت لي ورحمتني»، فإذا قضى صلاته، قال:

«اللهم لا أرى شيئًا من الدنيا يدوم، ولا أرى حالًا فيها يستقيم، اللهم اجعلني أنطق فيها بعلم، وأصمت بحكم، اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغي، ولا تقل لي منها فأنسى، فإنه ما قل وكفى خير مما كثر وألهى». ١٢٤

١٢٢ البخاري، الشهادات، ١١.

١٢٣ أحمد، ج٥، ص٤٧.

١٢٤ ابن أبي شيبة، مصنف، ج٦، ص٦٥.



ولما نشب الناس في الطعن على عثمان قام عامر بن ربيعة فصلى من الليل، فقيل له: قم فاسأل الله أن يعيدك من الفتنة التي أعاد منها عباده الصالحين، فقام فصلى فمرض، فما رُئيَ خارجاً حتى مات. ١٢٥

وعندما اقترب الأجل من عامر بن قيس وهو من التابعين، بكى، فسئل: ما يبكيك؟ قال:

«ما أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدنيا،

ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام الليل». ١٢٦

ويروى أن أهل الله قالوا في وقت الأسحار الذي هو أفضل وقت للعبادة، ووقت الاستغفار وقبول الدعاء، ومحو المعاصي وصحة الأبدان: إن إحياء الليل هو المُلْك المُشار إليه في قوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ

الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾. ١٢٧

١٢٥ ابن أبي شيبة، مصنف، ج٦، ص٣٦٢.

١٢٦ الذهبي، السيرة، ج٤، ص١٩.

١٢٧ آل عمران، ٢٦.



أداء العبادات

كان الناس في عصر السعادة يؤدون عباداتهم كما ينبغي، ولكنهم ما يرون أنهم أدوها حقَّ أدائها، فكانوا يعيشون دائماً بين الخوف والرجاء.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ

رَاجِعُونَ﴾^{١٢٨}

أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال:

«لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم»^{﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾}^{١٢٩، ١٣٠}

وليس هناك سبيل للمسلم بعد أداء العبادات كما ينبغي إلا اللجوء إلى رحمة الله تعالى، لأن أدعيتنا تحتاج إلى القبول مثل أعمالنا.

١٢٨ المؤمنون، ٦٠.

١٢٩ المؤمنون، ٦١.

١٣٠ الترمذي، تفسير، ٢٣/٣١٧٥؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٠.



التنافس في الخير والفضيلة

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يتنافسون في الخير والعمل الصالح، عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قال: صَلَّى النبي صلى الله عليه وسلم الصبح، ثم أقبل على أصحابه فقال: «هل منكم أحد أصبح صائماً؟»

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، لم أحدث نفسي بالصوم البارحة فأصبحت مفطراً. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لكنني حدثت نفسي بالصوم البارحة فأصبحت صائماً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«هل منكم اليوم أحد عاد مريضاً؟»

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، صلينا ثم لم نبرح فكيف نعود المرضى؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلغني أن أخي عبد الرحمن بن عوف اشتكى، فجعلت طريقي عليه حين خرجت إلى المسجد لأنظر كيف أصبح. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«هل منكم أحد أطعم اليوم مسكيناً؟»

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، صلينا ثم لم نبرح، فقال أبو بكر رضي الله عنه: دخلت المسجد فإذا أنا بسائل يسأل،



فوجدت كسرة خبز شعير في يد عبد الرحمن فأخذتها
فدفعتها إليه. فقال رسول الله ﷺ:
«أنت فأبشر بالجنة».

فتنفس عمر رضي الله عنه فقال: واهًا للجنة. فقال النبي ﷺ
كلمة رضي بها عمر:

«رحم الله عمر رحم الله عمر لم يرد خيرًا قط إلا
سبقه أبو بكر إليه».^{١٣١}

فتنبهنا هذه الرواية إلى ضرورة أن تكون كل لحظة
من لحظات حياتنا من أجل رضا المولى جل جلاله،
وتعلمنا أن أعمالنا تكون على نياتنا.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.^{١٣٢}

١٣١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٣، ص١٦٣-١٦٤؛ انظر أيضًا: أبو داود، الزكاة، ٣٦/١٦٧٢؛ الحاكم، ج١، ٥٧١/١٥٠١.

١٣٢ الانشراح، ٧-٨.



اتِّبَاعُ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ

قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

«إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل،
وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون
خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن
يكون على السنة». ١٣٣

ذلك أن طاعة رسول الله ﷺ هي طاعة لله سبحانه
وتعالى القائل في كتابه الكريم:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. ١٣٤

وقد أدرك المرء في عصر السعادة هذه الحقيقة،
فحرص على أن تكون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته
كلها موافقة للسنة، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال:
«كان رسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن،
وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به». ١٣٥

١٣٣ ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين، ج٢، ص ١٥٩.

١٣٤ النساء، ٨٠.

١٣٥ مسلم، الحج، ١٤٧.



وعن أمية بن عبد الله أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر؟ فقال له عبد الله:

«إن الله بعث إلينا محمدًا ﷺ ولا نعلم شيئًا، فإنما نفعل كما رأينا محمدًا ﷺ يفعل». ١٣٦

وقد قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ١٣٧

رأى التابعي سعيد بن المسيب رجلًا يصلي بعد العصر الركعتين يكبر [أي في وقت الكراهة]، فقال له: يا أبا محمد، أيعذبنني الله على الصلاة؟ قال:

«لا، ولكن يعذبك الله بخلاف السنة». ١٣٨

سئل علي ؓ: يركب الرجل هديه؟ فقال: لا بأس به، قد كان النبي عليه الصلاة والسلام يمر بالرجال يمشون، فيأمرهم يركبون هديه ويهدي النبي عليه الصلاة

١٣٦ ابن ماجه، إقامة، ٧٣؛ أحمد، جـ٢، ص ٦٥، ٩٤.

١٣٧ الحجرات، ١.

١٣٨ الدارمي، المقدمة، ٤٥٠.



حُبَّ العِبَادَةِ فِي مَجْتَمَعِ عَصْرِ السَّعَادَةِ

والسلام، قال: ولا تتبعوا شيئاً أفضل من سنة نبيكم عليه
الصلاة والسلام. ١٣٩

وقال ﷺ:

«قد رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا وقعد فقعدنا». ١٤٠

وقال أيضاً:

«الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر

رسول الله ﷺ». ١٤١

ورؤي ﷺ يتوضأ فغسل ظهر قدميه وقال:

«لولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يغسل ظهور قدميه،

لظننت أن بطونهما أحق بالغسل». ١٤٢

صلى عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي صاحب

رسول الله ﷺ على جنازة ابنة له، فكبر عليها أربعاً،

فمكث بعد الرابعة شيئاً، قال: فسمعت القوم يسبحون

به، من نواحي الصفوف، فسلم ثم قال: أكنتم ترون أنني

١٣٩ أحمد، ج١، ص١٢١.

١٤٠ أحمد، ج١، ص٨٣.

١٤١ البورصوي، روح البيان، ج٢، ص١٩٤.

١٤٢ أحمد، ج١، ص١١٤.



مكبر خمسًا؟ قالوا: تخوفنا ذلك، قال: لم أكن لأفعل، ولكن رسول الله ﷺ كان يكبر أربعًا، ثم يمكث ساعة، فيقول ما شاء الله أن يقول، ثم يسلم. ١٤٣

وجع أبو موسى الأشعري ﷺ وجعًا فغشي عليه، ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا، فلما أفاق قال: أنا بريء مما برئ منه رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإن رسول الله عليه الصلاة والسلام برئ من الصالقة، ١٤٤ والصالقة، ١٤٥ والشاقة. ١٤٦، ١٤٧

وكان ابن عمر ﷺ إذا دخل المدينة، دخل المسجد وصلى ركعتين، ثم انصرف إلى بيته كما كان يصنع رسول الله عليه الصلاة والسلام. ١٤٨

١٤٣ ابن ماجه، الجناز، ٢٤.

١٤٤ التي ترفع صوتها عند المصيبة.

١٤٥ التي تحلق شعرها عند المصيبة.

١٤٦ التي تشق ثوبها عند المصيبة.

١٤٧ البخاري، الجناز، ٣٧، ٣٨؛ مسلم، الإيمان، ١٦٧؛ النسائي، الجناز، ١٧.

١٤٨ أبو داود، الجهاد، ١٦٦ / ٢٧٨١، ٢٧٨٢.



وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إذا حجَّ أو اعتمر، بات
بذي طوى حتى أصبح، كما فعلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم.^{١٤٩}

وكان رضي الله عنه يصلي الظهر والعصر والمغرب والعشاء
بالمُحَصَّب، ثم يدخل مكة من الليل فيطوف بالبيت، ثم
يقول: هكذا فعلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم.^{١٥٠}

وقد اشترى رضي الله عنه هديه من قديد، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم
فعلَ ذلك.^{١٥١}

وخلاصة الكلام أنه رضي الله عنه كان إذا سُئِلَ لمَ فعل هذا أو
ذاك، قال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل هذا.^{١٥٢}

عن أبي رافع رضي الله عنه قال: صليت مع أبي هريرة صلاة
العمرة فقرأ: (إذا السماء انشقت) فسجد فيها، فقلت له:
ما هذه السجدة؟ فقال: سجدت بها خلف أبي القاسم
عليه الصلاة والسلام، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه.^{١٥٣}

١٤٩ البخاري، الحج، ٣٨، ١٤٨، ١٤٩؛ مسلم، الحج، ٢٢٦.

١٥٠ البخاري، الحج، ١٤٩؛ مسلم، الحج، ٣٣٧؛ موطأ، الحج، ٢٠٧.

١٥١ الترمذي، الحج، ٩٠٧/٦٨.

١٥٢ انظر: البخاري، الوضوء ٣٠، الحج ١٦، ٣٨، ١٤٩؛ مسلم، الحج
٢٥، ٢٤٥، ٥٢١؛ أبو داود، الخاتم، ٥/٥٢٢٧، ٤٢٢٨؛

١٥٣ مسلم، المساجد، ١١٠؛ أحمد، ج-٢، ص ٢٢٩.

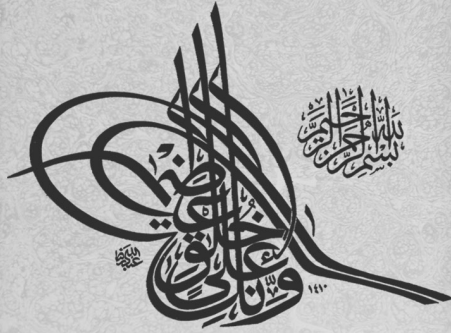


وعن أبي هارون العبدى رضي الله عنه، قال: كنا نأتي أبا سعيد، فيقول: مرحبًا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا». ١٥٤.

فهكذا كان جيل الصحابة الكرام في عصر السعادة، كانوا يحرصون على الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حركاته وأفعاله وأقواله بصدق وإخلاص، حتى صار اقتداؤهم بالنبي مصدر سعادة ولذة عظيمة لهم.

١٥٤ الترمذي، العلم، ٤/٢٦٥٠؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧، ٢٢؛
الدارمي، المقدمة، ٢٦؛ الحاكم، ج١، ١٦٤/٢٩٨.





﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم، ٤]

الكمال الأخلاقي

في مجتمع عصر السعادة

الكمال الأخلاقي في مجتمع عصر السعادة

لا ريب أن مجتمع عصر السعادة كان مجتمعاً فريداً في تاريخ الإنسانية من حيث الفضيلة والعدالة والإيثار وحسن الأخلاق، وتنبع قداسة هذا العصر من وجود رسول الله ﷺ فيه، فهو عصر شكَّلته أقوال رسول الله وأفعاله وروحانياته، وهو عصرٌ معرفة الله ورسوله يقيناً بالتفكير والتدبر.

لنضرب هنا مثلاً لتقريب الصورة: حينما ننظر إلى جبل شاهق من بعيد، نرى شكل الجبل فقط، ولكننا كلما اقتربنا منه، بدت أشجاره وثماره وطيوره، فكلما رأى المرء الجمال من قريب، زاد إعجابه به. لهذا لا نستطيع أن نتعرف إلى رسول الله ﷺ بصورة حقيقية بالقراءة عنه من السطور، فهو لا يُعرَف حقَّ المعرفة إلا بمقدار محبته في القلب، لذلك نجد أن الصحابة الكرام الذين كانوا



ينظرون إليه بمحبة عظيمة في قلوبهم كانوا يقولون له إذا أراد شيئاً: «فداك أبي وأمي يا رسول الله!»

وإنما علامة محبتنا له بمحبة الكتاب والسنة، فعلينا أن نجعلهما حاضرَيْن في كل صفحة من صفحات حياتنا، فنسعى لنيل رضا الله تعالى ومحبة نبيه الكريم. وعلينا أن نتخلق بأخلاق الإسلام الفاضلة بعيش الكتاب والسنة، ونحرص على نشر ذلك في المجتمع على أفضل صورة.

التواضع

كان الصحابة الكرام كلما سموا بأخلاق الإسلام، ازدادوا تواضعاً، وخير مثال لذلك أن سلمان الفارسي رضي الله عنه لما كان أميراً على المدائن، فجاء رجل من أهل الشام من بني تيم الله، معه حمل تين، وعلى سلمان أندرورد وعباءة، فقال لسلمان: تعال احمل وهو لا يعرف سلمان، فحمل سلمان، فرآه الناس، فعرفوه، فقالوا: هذا الأمير، قال: لم أعرفك، فقال له سلمان: لا حتى أبلغ منزلك. ١٥٥



وقد أثنى الله تعالى على أهل التواضع مثل سيدنا سلمان فى قوله:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ١٥٦

الرحمة

كانت الرحمة من أبرز خصال الإنسان فى مجتمع عصر السعادة، والمثال التالى يوضح لنا الدرجة التى وصل إليها الناس فى ذلك المجتمع كبيرهم وصغيرهم من حيث الرحمة والكرم والسخاء:

روى عن الحسن بن علي أنه كان مارًا فى بعض حيطان المدينة فرأى أسود، بيده رغيف، يأكل لقمة ويطعم الكلب لقمة، إلى أن شاطره الرغيف، فقال له الحسن: ما حملك على أن شاطرته، فلم يعاينه فيه بشيء؟ قال: استحت عيناى من عينيه أن أعاينه، فقال له: غلام من أنت؟ قال: غلام أبان بن عثمان، فقال: والحائط؟ فقال: لأبان بن عثمان، فقال له الحسن، أقسمت عليك لا برحت حتى أعود إليك. فمرّ فاشترى الغلام والحائط، وجاء إلى الغلام فقال: يا غلام قد



اشتريتك، فقام قائماً فقال: السمع والطاعة لله ولرسوله
ولك يا مولاي، قال: وقد اشتريت الحائط، وأنت لوجه
الله والحائط هبة مني إليك، فقال الغلام: يا مولاي، قد
وهبت الحائط للذي وهبته لي. ١٥٧

فوجد في هذه الحادثة أن العبد عبدٌ في الظاهر ولكنه
سلطان في معرفة الله، إذ قابل الفضيلة بفضيلة أعظم.

كان مجتمع عصر السعادة رحيماً حتى بالحيوانات
والنباتات، فعن عبد الله بن عمرو قال: مر رسول الله ﷺ
برجل يحلب شاة فقال:

«أي فلان، إذا حلبت فأبقِ لولدها، فإنها من أبرِّ
الدواب». ١٥٨

ومرَّ أبو الدرداء رضي الله عنه بقوم قد أناخوا ببعيراً فحمّله
غرارتين ثم علوه بأخرى، فلم يستطع البعير أن ينهض،
فألقاها عنه أبو الدرداء رضي الله عنه ثم أنهضه، فقال أبو الدرداء:
إن غفر الله لكم ما تأتون إلى البهائم ليغفرن عظيمًا،
إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

١٥٧ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٧، ص٢٥.

١٥٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٨، ص١٩٦.

«إن الله تعالى يوصيكم بهذه العجم خيراً أن تنزلوا بها منازلها، فإذا أصابتكم سنة أن تنحوا عنها نقيها».^{١٥٩}

العفو من أجل الله

على المرء أن يعفو عن الناس كثيراً حتى يعفو الله عنه، فجميعنا يعيش وبين جانبيه ذنوبٌ كثيرةٌ تحتاج إلى العفو من الله تعالى، وأخطاءٌ شتى تحتاج إلى المسامحة من الناس.

كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، فلما كان مسطح من الذين شاركوا في «حادثة الإفك»، قال أبو بكر رضي الله عنه:

والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^{١٦٠}

١٥٩ ابن حجر، المطالب العلية، ج٩، ٣٤٦/١٩٧٨.

١٦٠ النور، ٢٢.

فقال أبو بكر رضي الله عنه:

والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح
النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً. ١٦١

قال عصام بن المصطلق:

دخلت المدينة فرأيت الحسن بن علي رضي الله عنه، فأعجبني
سمته وحسن روائه، فأثار مني الحسد ما كان يجنه
صدري لأبيه من البغض، فقلت: أنت ابن أبي طالب!
قال نعم. فبالغت في شتمه وشتم أبيه، فنظر إلي نظرة
عاطف رؤوف، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ.
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾. ١٦٢

١٦١ البخاري، المغازي، ٣٤؛ مسلم، التوبة، ٥٦؛ الطبري، تفسير، ج٢،
ص٥٤٦.



ثم قال لي: خَفَضُ عليك، استغفر الله لي ولك، إنك لو استعنتنا أعناك، ولو استرفدتنا أرفدناك، ولو استرشدتنا أرشدناك. فتوسم في الندم على ما فرط مني فتلا قوله تعالى:

﴿قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ﴾. ١٦٣

ففهمت أنه علم أنني من المعارضين لأبيه، ثم سألني: أمن أهل الشام أنت؟ قلت: نعم. فقال: شَنِشَنَةَ [عادة] أعرفها من أخزم، حياك الله ويياك [بِوَأَكْ مَنْزِلًا]، وعافاك، وآداك [أعناك]، انبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك، تجدنا عند أفضل ظنك، إن شاء الله. قال عصام: فضاقت عليّ الأرض بما رحبت، ووددت أنها ساخت بي، ثم تسللت منه لوأذاً، وما على وجه الأرض أحب إلي منه ومن أبيه. ١٦٤

إن الإنسان يغلبه الإحسان، فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

١٦٣ يوسف، ٩٢.

١٦٤ القرطبي، تفسير، الأعراف، ج٧، ص ٣٥٠-٣٥١.



﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. ١٦٥
فهذه الحادثة المعبرة توضّح النتيجة العظيمة
للأخلاق الحسنة، وهذا يعني أن لإرضاء القلوب بالعفو
 وتمثيل الأخلاق الإسلامية تأثيراً عظيماً في الناس.

وروي عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات
يوم بصحفة فيها مرقة حارة، وعنده أضياف فعثرت
فصبت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها،
فقالت الجارية: يا مولاي، استعمل قول الله ﷻ:
(والكاظمين الغيظ).

قال لها: قد فعلت.

فقالت: اعمل بما بعده، (والعافين عن الناس).

فقال: قد عفوت عنك.

فقالت الجارية: (والله يحب المحسنين).

قال ميمون: قد أحسنت إليك، فأنت حرة لوجه الله

تعالى. ١٦٦



الأمانة والصدق

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

لما فُتحت مكة، قسمَ الغنائمَ في قريش، فقالت الأنصار: إن هذا لهو العجب، إن سيوفنا تقطر من دمائهم، وإن غنائمنا تُردُّ عليهم. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فجمعهم، فقال: «ما الذي بلغني عنكم؟»

قالوا: هو الذي بلغك، وكانوا لا يكذبون. ١٦٧

وعنه رضي الله عنه قال:

«والله ما كل ما نحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعناه

منه، ولكن لم يكن يكذب بعضنا بعضاً». ١٦٨

وحتى الأعداء كانوا يحسدون أخلاق المسلمين ويثقون بهم، ففي نهاية غزوة أحد، قال أبو سفيان لعمر رضي الله عنه: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: «أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرُّ»، لقول ابن قمئة لهم: إني قد قتلت محمدًا. ١٦٩

١٦٧ مسلم، الزكاة، ١٣٤.

١٦٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج١، ص ١٥٣.

١٦٩ ابن هشام، سيرة، ج٢، ص ٩٤؛ الواقدي، مغازي، ج١،

ص ٢٩٦-٢٩٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٦، ص ١١١.



فنفهم من هذه الحادثة أن الإنسان يتأثر بالشخصية ذات الخلق الحسن، فيثق بها وإن كانت شخصية عدوّه. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنّة والإسلام، قال فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة». ١٧٠

وهذا دليل على أن الصدق والأمانة خُلُقَان ساميان يستحقان ثناء النبي ﷺ على صاحبهما.

الكرم والإيثار

لقد تربي الصحابة الكرام رضوان الله عليهم بتربية النبي ﷺ، فاقتبسوا من كرمه وإيثاره. فعن جابر رضي الله عنه قال: «لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف». ١٧١

ونقل ابن حزم أن ابن عمر رضي الله عنهما وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وسائر الصحابة حبسوا جملةً صدقاتهم بالمدينة، وقال: هذا أشهر من الشمس، لا يجهلها أحد. ١٧٢

١٧٠ مسلم، فضائل الصحابة، ٥٤؛ أحمد، ج٣، ص١٤٦.

١٧١ ابن قدامة، المغني، ج٦، ص٣.

١٧٢ محمد عبده يمانى، إنها فاطمة الزهراء، ج٣٣٣.

وقد احتبس قائدُ الجيوش الإسلامية العظيم خالد بن الوليد أذراعه وأعتاده في سبيل الله. ١٧٣

رُويَ أن عبيد الله بن العباس رضي الله عنه خرج في سفر له، ومعه مولى له، حتى إذا كان في بعض الطريق، رفع لهما بيت أعرابي، قال: فقال لمولاه: لو أنا مضينا، فنزلنا بهذا البيت، وبتنا فيه؟ قال: فمضى، قال: وكان عبيد الله رجلاً جميلاً جهيراً، فلما رآه الأعرابي أعظمه، وقال لامرأته: لقد نزل بنا رجل شريف. وأنزله الأعرابي، ثم إن الأعرابي أتى امرأته، فقال: هل من عشاء لضيفنا هذا؟ فقالت: لا، إلا هذه السويمة التي حياة ابنتك من لبنها، قال: لا بد من ذبحها، قالت: أفقتل ابنتك؟ قال: وإن! قال: ثم إنه أخذ الشاة والشفرة، وجعل يقول:

يا جارتى لا توقظي البنيه

إن توقظيها تنتحب عليه

وتنزع الشفرة من يديه

ثم ذبح الشاة، وهياً من طعام، ثم أتى به عبيد الله ومولاه، فعشاهما، وعبيد الله يسمع كلام الأعرابي



لامرأته ومحاورتها. فلما أصبح عبيد الله، قال لمولاه:
هل معك شيء؟ قال: نعم، خمسمئة دينار فضلت من
نفقتنا، قال: ادفعها إلى الأعرابي، قال: سبحان الله!
أعطيه خمسمئة دينار، وإنما ذبح لك شاة ثمن خمسة
دراهم؟ قال: ويحك! والله لهو أسخى منا وأجود،
إنما أعطيناه بعض ما نملك، وجاد هو علينا وآثرها
على مهجة نفسه وولده. فبلغ ذلك معاوية، فقال:
لله در عبيد الله! من أي بيضة خرج؟ ومن أي عش
درج؟^{١٧٤}

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن مسكيناً سألها،
وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت
لمولاة لها: «أعطيه إياه»، فقالت: ليس لك ما تفرطين
عليه، فقالت: «أعطيه إياه»، قالت: ففعلت، قالت:
فلما أمسينا أهدي لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدي
لنا شاة وكفنها، فدعتني عائشة أم المؤمنين فقالت:
«كلي من هذا، هذا خير من قرصك».^{١٧٥}

١٧٤ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣، ص ١٩٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق،
ج٣٧، ٤٨٣-٤٨٤.



ورُوِيَ أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان لا يأكل طعاماً إلا وعلى خوانه يتيم.^{١٧٦}

ويقول الحسن البصري الذي عاش في عصر الصحابة والتابعين:

«لقد عهدت المسلمين، وإن الرجل منهم ليصبح فيقول: يا أهليه، يا أهليه، يتيمكم يتيمكم، يا أهليه، يا أهليه، مسكينكم مسكينكم، يا أهليه، يا أهليه، جاركم جاركم، وأسرع بخياركم وأنتم كل يوم ترذلون».^{١٧٧}

تجنب الإسراف

عن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«يُجْزَى من الوضوء مُد، ومن الغسل صاع»،
فقال رجل: لا يجزئنا، فقال عقيل:

قد كان يجزى من هو خير منك، وأكثر شعراً، يعني النبي ﷺ.^{١٧٨}

١٧٦ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ١٣٦؛ أبو نعيم، الحلية، ج١، ص ٢٩٩.

١٧٧ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ١٣٩.

١٧٨ ابن ماجه، الطهارة، ١.



وعن كثير بن عبيد- أخ السيدة عائشة من
الرضاعة- قال: دخلت على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها،
فقلت: أمسك حتى أخيط نقبتي فأمسكت فقلت:
يا أم المؤمنين، لو خرجتُ فأخبرتهم لعدوه منك
بخلاً، قالت: أبصر شأنك، إنه لا جديد لمن لا يلبس
الخلق. ١٧٩

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ مِنَ الْأَمْرِ
وَمَا كَانُوا يَلْمِزُونَ
وَمَا كَانُوا يَلْعَنُونَ
وَمَا كَانُوا يَلْعَنُونَ

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

[الأحزاب، ٢١]

الحياة الاجتماعية

في مجتمع عصر السعادة

الحياة الاجتماعية في مجتمع عصر السعادة

الاهتمام بالتربية الإسلامية

كان رسول الله ﷺ حريصًا على نشر القراءة والكتابة في المجتمع، فما كان يجد فرصة في هذا الجانب إلا استفاد منها، ففي غزوة بدر جعل فدية كل مشرك تعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة.

وجعل الصحابة الكرام بيوتهم مدارس للعلم، ولمَّا لم يكفِ التعليم في الصُفَّة، فُتِحَتْ مدارس في بعض البيوت باسم «دار القُرَّاء». ورُوِيَ أن مخرمة بن نوفل قد جعل قسمًا من داره أو داره كلها دارًا لتعليم القرآن الكريم، وقد نزلَ في دار القراء هذه أم مكتوم رضي الله عنها.^{١٨٠}

وقد وهبَ رسول الله ﷺ أسيرةً من هوازن لعلي بن أبي طالب فعلمها شيئًا من القرآن.^{١٨١}

١٨٠ الكتاني، التراتيب، ١، ٥٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ١، ١٤٧.

١٨١ ابن الأثير، أسد الغابة، ٧، ١٠٦؛ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٢٩٢.



إحقاق الحق في التجارة

عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه ساوم رجلاً بفرس فسامه، فسامه الرجل خمسمئة درهم إن رأيت ذلك؟ فقال له جرير: فرسك خير من ذلك، ولك ستمائة حتى بلغ ثمانمائة، وهو يقول: إن رأيت ذلك؟ فقال جرير: فرسك خير من ذلك، ولك ستمئة حتى بلغ ستمئة حتى بلغ ثمانمئة، وهو يقول: إن رأيت ذلك؟ فقال جرير: فرسك خير من ذلك، ولا أزيدك؟ فقال له الرجل: خذها؟ فقبل له: ما منعك أن تأخذها بخمسمئة؟ فقال جرير: لأننا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا نغش أحداً. ١٨٢

المؤاخاة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده. ١٨٣

أخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار، فقد ترك المهاجرون أعمالهم وأموالهم في سبيل دينهم وهاجروا

١٨٢ ابن حزم، المحلى، ج٧، ص ٣٦١.

١٨٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٢، ص ٢٩٥.



إلى المدينة، فقبولت تضحيتهم العظيمة هذه بسخاء عظيم من الأنصار، إذ استقبلت كل أسرة من الأنصار أسرةً من المهاجرين، فتحققت بذلك المؤاخاة بينهم، وعملوا معاً وتقاسموا الربح. وأعطى الأنصار ما زاد من أراضيهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام كي يقسمها على المهاجرين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالت الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم:
اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقال:
«تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة»،
قالوا: سمعنا وأطعنا.^{١٨٤}

عن جابر رضي الله عنه قال:
«كانت الأنصار إذا جروا نخلهم قسّم الرجل ثمرة إلى قسمين: أحدهما أقل من الآخر، ثم يجعلون السعف [جريد النخل وورقه] مع أقلهما، ثم يخيّرون المسلمين فيأخذون أكثرهما، ويأخذ الأنصار أقلهما من أجل السعف».^{١٨٥}

١٨٤ البخاري، الشروط، ٥.

١٨٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٤٠.



دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال:

«إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي

أثرة». ١٨٦

والحق أن هذه الأخلاق الفاضلة التي كانت لدى الأنصار هي درجة أعلى من السخاء والكرم، أي هي فضيلة الإيثار، وقد أثنى الله تعالى عليهم في قوله:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. ١٨٧

١٨٦ البخاري، مناقب الأنصار، ٨.

١٨٧ الحشر، ٩-١٠.



ولم يكن الأنصار وحدهم على هذا الخلق الرفيع، بل جميع المؤمنين في عصر السعادة، وقد أثنى الله تعالى عليهم في مواضع من كتابه العزيز.^{١٨٨}

وكانت هذه الأخوة بين المسلمين قائمة في الحضر والسفر، وكان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر، جعل الأخ في جيشه، والآخر أبقاه للدفاع عن المدينة وقضاء حاجة أسرته وأسرته أخيه.

عن علي ﷺ قال:

«ما أدري أي النعمتين أعظم عليّ منّة من ربي، رجل بذل مصاص [خالص كل شيء] وجهه إليّ فرآني موضعاً لحاجته وأجرى الله قضاءها أو يسّره عليّ يدي، ولأنّ أفضي لامرئ مسلم حاجة أحب إليّ من ملء الأرض ذهباً وفضة».^{١٨٩}

كان أنس بن مالك ﷺ يقول:

«يا بنيّ، تبادلوا بينكم، فإنه أودُّ لما بينكم».^{١٩٠}

١٨٨ انظر: الإنسان، ٨-١١.

١٨٩ علي المتقي، كنز العمال، ج٦، ٥٩٨/٤٩٠٤٩.

١٩٠ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ٥٩٥.



عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان معتكفًا في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل فسلم عليه، ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان أراك كئيبيًا حزينًا، قال: نعم يا ابن عم رسول الله ﷺ، لفلان عليّ حق، لا وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه، قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك، قال: إن أحببت، قال: فانتقل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ [أي الاعتكاف] قال: لا، ولكنني سمعت صاحب هذا القبر ﷺ، والعهد به قريب فدمعت عيناه، وهو يقول:

«من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرًا من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد ما بين الخافقين». ١٩١

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

لقد أتى علينا زمان - أو قال: حين - وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم، ثم الآن الدينار

١٩١ البيهقي، شعب، ج٣، ص ٤٢٤-٤٢٥؛ انظر أيضًا: الهيثمي، مجمع

الزوائد، ج٨، ص ١٩٢.



الحياة الاجتماعية في مجتمع عصر السعادة ﷺ.

والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، سمعت النبي ﷺ يقول:

«كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب، هذا أغلق بابه دوني، فمنع معرفه». ١٩٢

الظرافة واللطافة في المجتمع

كان مجتمع عصر السعادة مجتمعاً تسوده الظرافة واللطافة في المعاملات، فكانوا يعاملون حتى النباتات والحيوانات معاملةً حسنةً ويُحسِنون إليها. وأكثر ما تبرز هذه السمة في المسلمين كان في موسم الحج، حين يُحرمون ويرتدون اللباس الأبيض، فيسمون في درجاتهم المعنوية حتى يغدون كالملائكة، وعندما يطوفون ويسعون ويقفون على عرفات، يتجنبون الرفث والفسوق والجدال، ولا يصيدون في الإحرام، ولا يدلون صائداً على صيد، ولا ينزعون حتى العشبة من مكانها، ولا شعرة من أجسامهم بقصد. ويُدركون ضرورة البعد عن الحرام والشبهات بالحرمان من بعض الحلال في أوقات معلومة. ويعاملون المخلوقات بالرفقة والرحمة

١٩٢ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ١١١؛ الهيثمي، الزوائد، ١٠، ٢٨٥.



من أجل خالقها، ويتجنبون كسر قلوب العباد، وبذلك تلين قلوبهم ويبلغون ذروة الظرافة واللطف، ويمثلون الإسلام خير تمثيل.

وكان النبي ﷺ يوصي الصحابة بالعناية بحيواناتهم والحرص على نظافتها لا سيما الغنم والمعز.^{١٩٣}

عن سودة بن الربيع رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فسألته، فأمر لي بدود،^{١٩٤} ثم قال لي:

«إذا رجعت إلي بيتك، فمرهم فليحسنوا غذاء رباعهم، ومرهم فليقلّموا أظفارهم ولا يعبطوا بها ضروع مواشيهم إذا حلبوا».^{١٩٥}

وقد جعل رسول الله ﷺ المدينة المنورة وما حولها حمى، وقال:

«لا يُخَبَطُ ولا يُعَضَّدُ حمى رسول الله ﷺ، ولكن يُهَشُّ هَشًّا رَفِيقًا».^{١٩٦}

١٩٣ انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٤، ص٦٦-٦٧.

١٩٤ قطع من الإبل بين الثلاث إلى العشر.

١٩٥ أحمد، ج٣، ص٤٨٤؛ الهيثمي، ج٥، ص١٦٨، ٢٥٩، ج٤، ص١٩٦.

١٩٦ أبو داود، الحج، ٩٥-٩٦/٢٠٣٩.

الحياة الاجتماعية في مجتمع عصر السعادة

عن أبي دعشم الجهني عن أبيه عن جده أنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أعرابي وهو يخبط على غنمه، فقال: «اتتوني بالأعرابي ولا تفرعوه».

فلما جاء قال:

«يا أعرابي، هش هشاً ولا تخبط خبطاً». ^{١٩٧}

وقال عليه الصلاة والسلام:

«ما من نبت ينبت إلا ويحفه ملك موكل به حتى يحصده، فأیما امرئ وطئ ذلك النبت يلعنه ذلك الملك». ^{١٩٨}

العِفَّة والحیاء

كانت العِفَّة والحیاء والنزاهة خصلاً سائدة بين الرجال والنساء في عصر السعادة، فقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ

١٩٧ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٦، ص٣٥١.

١٩٨ علي المتقي، كنز العمال، ج٣، ٩٠٥/٩١٢٢.



لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ
عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ
أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ
أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ
الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ١٩٩

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله:
(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)، شققن مروطهن
[إزارهن]، فاختمرن بها» ٢٠٠



عن صفية بنت شيبة قالت:

«بيننا نحن عند عائشة رضي الله عنها، قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن. فقالت عائشة، رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً وإنني - والله - وما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشدّ تصديقاً بكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل. لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلِيُضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح معتجرات، كأن على رؤوسهن الغربان». ٢٠١

كان مجتمع عصر السعادة حريصاً على عدم الاختلاط بين الرجال والنساء، فكانت هناك دائماً مسافة بين الطرفين، ذلك أن من أسس الإسلام تحريم السيئات، وتحريم أي سلوك أو فعل قد يقود الإنسان إلى تلك السيئات.



والإسلام يولي أهمية عظيمة للصلاة في جماعة
وصلاة الجمعة، ولكنه لم يُجبرِ المرأة على هذه العبادة
منعاً للاختلاط بين الرجال والنساء، وجعل صلاة المرأة
في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، فقد قال رسول
الله ﷺ:

«خير مساجد النساء قعر بيوتهن».^{٢٠٢}

ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يمنع النساء من
حضور المسجد، بل أجاز لهم ذلك، وأمرهم بأن يصلوا
وراء الرجال.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي الصبح
بغسل، فينصرفن نساء المؤمنين لا يعرفن من الغسل - أو
لا يعرف بعضهن بعضاً.^{٢٠٣}

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«لو تركنا هذا الباب للنساء»

قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات.^{٢٠٤}

٢٠٢ أحمد، ج٦، ص ٢٩٧.

٢٠٣ انظر: البخاري، الأذان، ١٦٢-١٦٦.

٢٠٤ أبو داود، الصلاة، ٥٣/٥٧١.



وكانت النساء يأتين إلى صلاة العيد ويصلين في مكان لهن، وكان النبي نبي الله ﷺ إذا فرغ من الخطبة، نزل، فأتى النساء، فذكرهن. ٢٠٥

وعن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام للنساء:

«استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق».

فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به. ٢٠٦
عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن» ٢٠٧
كما منعت نساء بني إسرائيل. ٢٠٨

٢٠٥ البخاري، العيدين، ٧-٨.

٢٠٦ أبوداود، الأدب، ١٦٧-١٦٨/٥٢٧٢.

٢٠٧ أي لمنعهن من الخروج إلى المساجد وهن على هذه الحالة.

٢٠٨ البخاري، الأذان، ١٦٣.



التبسم

قيل لسفيان بن عُيينة: المزاح هجنة؟ فقال: بل سُنَّة،
لقوله عليه الصلاة والسلام:

«إني لأمزح ولا أقول إلا الحق».^{٢٠٩}

وكان عليه الصلاة والسلام يمازح ويقول في مزاحه
الحق، ويوري ولا يقول في توريته إلا الحق.^{٢١٠}

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أناسًا
نشيطين تدب فيهم الحماسة دائمًا، ويدركون جيدًا أن
لكل مقام مقال، ويعلمون متى يكون المزاح ومتى يكون
الجد، فكانت حياتهم في اعتدال، ويحذرون من الإفراط
والتفريط.

عن بكر بن عبد الله قال:

«كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون [يترامون] بالبطيخ،

فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال».^{٢١١}

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال:

٢٠٩ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٤، ص٢.

٢١٠ ابن قيم، زاد المعاد، ج١، ص١٥٧.

٢١١ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ٢٦٦.



«لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزّقين، ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر الله، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون». ٢١٢

وعن ثابت بن عبيد قال:

«ما رأيت أحداً أجلاً إذا جلس مع القوم، ولا أفكاً في بيته، من زيد بن ثابت». ٢١٣

نظر عمر بن الخطاب ؓ إلى أعرابي قد صَلَّى صلاة خفيفة، فلما قضاها قال: اللهم زوّجني بالحوار العين؛ فقال عمر:

«يا هذا! أسأت النقد، وأعظمت الخطبة». ٢١٤

وعن أبو بكر الثقفي أن الصحابة ؓ كانوا يقرؤون قليلاً من القرآن وقليلًا من الشعر. ٢١٥

كان ابن عباس يقول لأصحابه إذا داموا في الدرس:

٢١٢ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ٥٥٥.

٢١٣ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ٢٨٦.

٢١٤ النويري، نهاية الأرب، ج٤، ص٣.

٢١٥ انظر: الكتاني، التراتيب، ج٢، ص٢٣٦.



«أحمضوا أي ميلوا إلى الفكاهة، وهاتوا من أشعاركم، فإن النفس تمل كما تمل الأبدان».^{٢١٦}
وعن أم الدرداء أنها قالت:

«كان أبو الدرداء إذا حدّث حديثاً تبسم، فقلت: لا يقول الناس إنك أي أحمق، فقال: ما رأيت أو ما سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً إلا تبسم».^{٢١٧}

كان عبد الله بن محمد من التابعين، وكان مزاحاً، فدخل على عمته السيدة عائشة ؓ وهي على فراش الموت فقال: يا أُمَّه، كيف تجدينك جُعِلتِ فداك؟ قالت: هو والله الموت، قال: فلا إذاً. فقالت: لا تدع هذا على حال، تعني: المزاح.^{٢١٨}

٢١٦ الكتاني، التراتيب، ج٢، ص٢٣٧.

٢١٧ أحمد، مسند، ج٥، ص١٩٨.

٢١٨ ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٧٦.



خاتمة

كان رسول الله ﷺ رحمةً للناس أجمعين، لا بل للكون كله. ولَمَّا وُلِدَ سيدنا محمد ﷺ وشَرَفَ الأَرْضَ، أَنَارَ العَالَمَ الغَارِقَ فِي الظلمات، وَأَشْرَقَتِ شمسُ السعادة التي انتظرها الناس طويلاً، وشُرِحَتِ الصدور، واطمأنت القلوب. وببركة النبي ﷺ حلَّ الربيع الدائم، وأوصلَ الإنسانية إلى الشرف الحقيقي والحق والعدل والمساواة، وهو الذي علَّمَ الناس سِرَّ الحياة في الدنيا والآخرة.

تربَّى نبينا الكريم ﷺ في مجتمع أمِّي، ولكنه بالكتاب العظيم الذي أنزل عليه صار مرجع المكتبات كلها، وملاً القلوب بالحكمة والأسرار والعلم اللدني، وصارت المنابر والمحاريب مراكز لتعليم الناس دروس الحقيقة. لقد فتحَ لنا نبيُّ الرحمة ﷺ كتابَ الكون الصامت، وترجمَ لنا أذكار العوالم المجهولة، ورفع المجتمعات التي كانت تعيش عيشةً أضل من الأنعام إلى درجة العز والشرف والكرامة التي تليق بالإنسان.



وعرضَ الله تعالى شخصيةَ الإنسان الكامل التي
يبتغيها بالإسلام في شخصية رسول الله ﷺ، فجعله
أسوةً حسنةً للناس أجمعين. وقد بلغ رسول الله ﷺ
بلسانه المبارك وأفعاله الأخلاقَ الحسنةَ التي يرضى
الله تعالى عنها، إذ لَمَّا سُئِلَتِ السيدة عائشة رضي الله عنها
عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ:

«كان خلقه القرآن». ٢١٩

كان رسول الله ﷺ بأحواله وأفعاله تفسيرًا عمليًا
للقرآن الكريم المُنزَّل على قلبه الطاهر طوال حياته، وقد
أثنى الله تعالى على خُلُقِهِ في قوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ٢٢٠

كان رسول الله ﷺ قدوةً للناس جميعًا في الأخلاق،
وخَيْرٌ مَنْ تَبِعَهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ وَأَهْلُ اللَّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ
الَّذِينَ أَدْرَكُوا عِظْمَةَ السَّيْرِ عَلَى خُطَاهُ كَانُوا عَلَى أَخْلَاقٍ
حَمِيدَةٍ تَلِيْقُ بِشَرَفِ الْإِنْسَانِ وَكَرَامَتِهِ.

٢١٩ انظر: مسلم، المسافرين، ١٣٩.

٢٢٠ القلم، ٤.



وقد ملأ الصحابة الكرام قلوبهم بمحبة رسول الله
وتخلقوا بأخلاقه بإطاعته في كل أمر، فنالوا بذلك ثناء
الله تعالى إذ قال:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. ٢٢١

ونحن لا نستطيع أن نكون من الصحابة الكرام،
ولكننا نستطيع أن نكون من «الذين اتبعوهم بإحسان»
فننال رضا الله تعالى.

وكان أولياء الله تعالى خير من نقل لنا أخلاق
نبينا الكريم ﷺ في العصور التي تلت عصر الصحابة
والتابعين، وجعلهم الله لنا قدوة، ورفع قدرهم عنده إذ
قال فيهم:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٢٢٢

٢٢١ التوبة، ١٠٠.

٢٢٢ يونس، ٦٢.



فإذا أردنا أن نأمن من الخوف والحزن، فعلينا أن نسير على درب أولياء الله.

إن الصحابة الكرام وأولياء الله العظام اقتدوا برسول الله ﷺ على أفضل صورة، فكانت أخلاقهم طوال حياتهم انعكاسًا لأخلاق النبي ﷺ.

فينبغي لنا نحن أمة محمد أن نملأ قلوبنا بمحبة النبي كما فعل الصحابة الكرام وجيل التابعين الذين تربوا على أيديهم، ونسعى للتخلق بأخلاقه ﷺ. وعلينا أن نعمل على عيش فضائل الصحابة الكرام التي لا تبلى مع مرور السنين ونُحيي هذه الفضائل، ذلك أن هذا هو الثمن الذي علينا أن ندفعه لأننا نلنا شرف كوننا من أمة النبي محمد ﷺ.

والحمد لله حمدًا كثيرًا أن جعلنا من أمة الحبيب محمد ﷺ فضلًا ونعمةً وكرمًا عظيمًا منه علينا، والسييلُ إلى إدراك حقيقة هذا اللطف الربّاني والوصولِ إلى محبة رسول الله ﷺ وبلوغِ مقامِ الثناء في قوله: "إخواني"، إنما هو الاعتصام بسُنَّته الشريفة والتخلق بأخلاقه الكريمة.



والحقُّ أنه من العسير إدراك حقيقة النبي ﷺ وأخلاقه الحميدة إدراكًا تامًّا بقدراتنا البشرية المحدودة، ومن العسير أيضًا وصفها بالكلمات كما ينبغي، لأن الانطباعات التي تؤخذ من هذا العالم لا تكفي لوصف النبي وإدراكه، تمامًا كما أنه من المحال وضع ماء البحر الزاخر في قدر. وما الكلمات التي تصدر عن ألسنتنا في وصفه عليه الصلاة والسلام ووصف عصر السعادة إلا كلمات بسيطة تنعكس من فضائله عليه الصلاة والسلام على إدراكنا العاجز.

يا رب، أعننا على الاقتداء برسولنا الكريم والتخلق بأخلاقه، وأحي قلبونا بمشاعر الصدور المباركة التي كانت تقول:

«فداك أبي وأمي يا رسول الله».

آمين!



فهرس

المقدمة..... ٥

مجتمع عصر السعادة / ٩

معتقدات الجاهلية تحط من قيمة الإنسان..... ١١

العبادات والمعاملات تُركت للمصالح الدنيوية..... ١٥

ابتعدت الأخلاق عن أصلها وإن كانت موجودة..... ١٦

إنسان عصر السعادة معجزة النبي ﷺ..... ٢١

بناء جيل قدوة..... ٢٢

ماذا أخذ الصحابة عن رسول الله ﷺ..... ٢٤

انتشار الإسلام بسرعة الضوء..... ٢٥

رقة المشاعر..... ٢٧

الانسجام بين عمل القلب و عمل العقل..... ٢٩

التعمق في التفكير..... ٣٠

صار التبليغ مبتغاهم وأذ أعمالهم..... ٣١

الاعتصام بالقرآن الكريم..... ٣٢

ما الذي جعل الصحابة الكرام يتجهون نحو القرآن الكريم؟

..... ٣٥



٣٦..... إعجاب العالم بهم

٣٧..... أخلاق الإسلام عملية لا نظرية

قوة الإيمان في مجتمع عصر السعادة / ٣٩

٤٢..... المسارعة إلى الإسلام

٤٣..... التضحية بالروح في سبيل الإسلام

٤٧..... الهجرة والجهاد في سبيل الله

حُب العباداة في مجتمع عصر السعادة / ٥١

٥٣..... الحرص على الوضوء دائماً

٥٦..... الصلاة قرّة عين

٥٩..... المسارعة إلى الجماعة

٦١..... إعطاء الزكاة

٦٥..... الإنفاق والصدقة

٦٩..... الصيام عبادة فريدة

٧٢..... الحج والعمرة

٧٥..... الحرص على علم الكتاب والسنة

٨١..... الشفاء ببركة القرآن الكريم

٨٣..... الاستغفار بالأسحار

٨٦..... أداء العبادات

٨٧..... التنافس في الخير والفضيلة

٨٩..... اتباع السنة المطهرة



الكمال الأخلاقي في مجتمع عصر السعادة/ ٩٥

- ٩٨..... التواضع
- ٩٩..... الرحمة
- ١٠١..... العفو من أجل الله
- ١٠٥..... الأمانة والصدق
- ١٠٦..... الكرم والإيثار
- ١٠٩..... تجنب الإسراف

الحياة الاجتماعية في مجتمع عصر السعادة/ ١١١

- ١١٣..... الاهتمام بالتربية الإسلامية
- ١١٤..... إحقاق الحق في التجارة
- ١١٤..... المؤاخاة
- ١١٩..... الظرافة واللطافة في المجتمع
- ١٢١..... العفة والحياء
- ١٢٦..... التبسم
- ١٢٩..... خاتمة
- ١٣٤..... الفهرس

